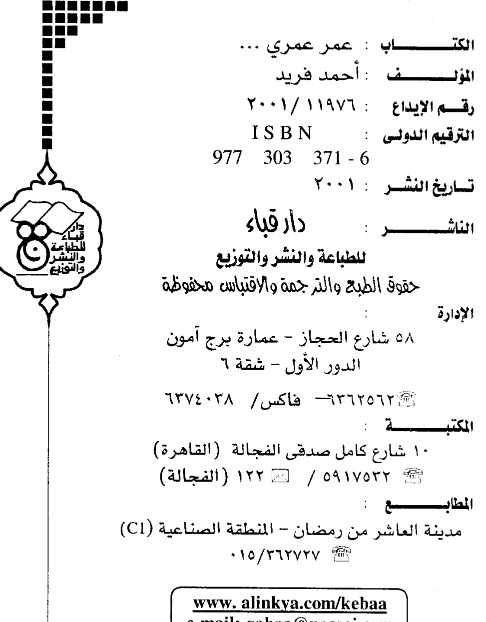
رواية
أحمد فريد

عمر عمري ....

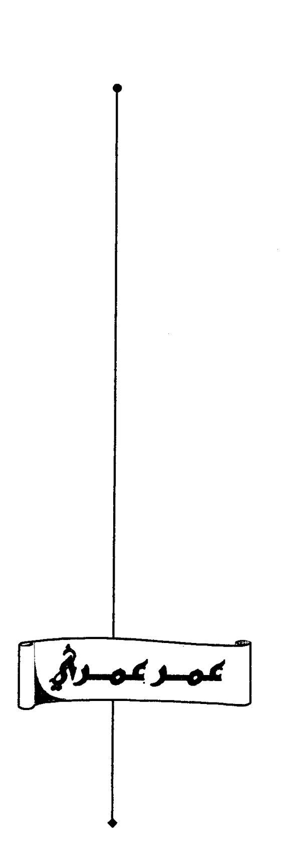
الناشر
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

الكتـــــاب : عمر عمري ...
المؤلـــــف : أحمد فريد
رقـــم الإيداع : ١١٩٧٦ /٢٠٠١
الترقيم الدولى : ISBN
977 303 371 - 6
تـاريخ النشـر : ٢٠٠١
الناشـــــــر : دار قباء



للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة :
٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون
الدور الأول - شقة ٦
☏ ٦٣٦٢٥٦٢ - فاكس/ ٦٣٧٤٠٣٨
المكتبـــــة :
١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
☏ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ ١٢٢ (الفجالة)
المطابـــــع :
مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)
☏ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧
www. alinkya.com/kebaa
e-mail: qabaa@naseej.com
kebaa@ajeeb.com



بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

بعض الناس قد ينجح في استثمار الموت والتربح منه ..

ولكن ..

كل الناس لو اجتمعوا بأموال الدنيا كلها فلن يستطيعوا شراء لحظة حياه واحدة .

أحمد فريد

١

لحظات .. وقرص الشمس يكاد يكمل تسلله في أعماق الأفق البعيد وكأنه يطفئ لهيبه المتأجج في جوف أمواج البحر أللامتناهية.

وقفت هيام سالم تتابع ذلك الرحيل وكأنها تودع بعضاً من ماضيها .. من ذكريات غالية أو بعضاً من أشجانها ونبضات كيانها .. كأنها تشهد علي رحيل كل آمالها في المستقبل .

إحساسها بدموع مقلتيها الدافئة يكاد يلامس الأمواج وهي تقبل عليها وتغدو .. إحساس يمتزج بالمرارة والخوف .. بواقع شرس كشف عن أنيابه فجأة ليلتهم كل أحلام الصبا ونضرة الشباب.

غربت الشمس .. و ..

سطعت في أعماقها أحداث تلك الليلة الرهيبة .

إستعادت في ذاكرتها كيف كانت تحلق بأجنحة السعادة وهي برفقة شقيقتها التوأم يتبادلان الآمال الجميلة ويستطلعان بخيالهما المستقبل السعيد .. يحلمان بما ستجود به الأيام من سعادة وهناء لشقيقتها أولا ثم لها ثانية فأختها تستعد لمراسم خطوبتها.

قررا في تلك الليلة أن يذهبا سوياً لاختيار ملابس الفرحة واحتياجات البهجة ولم تتوقع هيام وهى تقطع الطريق مع أختها

للجانب الأخر بأن الواقع سيقتطع منها جزء من كيانها وحياتها حيث ظهرت فجأة سيارة ماجنه كالشيطان المتربص .. وفي لحظة .. إنتهي كل شيء .. رأت توأمها وهي تطير في الهواء لتسقط جثة هامدة وبعض أجزاء جسدها قد تطاير هو الآخر في اتجاهات متعددة .. بينما أرتمي قائد السيارة فوق عجلة القيادة في إغماءه بسيطة واختلطت أنفاسه بالاضطراب والبكاء .. كان صورة مجسدة للضياع والفساد والتدليل المدمر .. علمت فيما بعد إنه لم يتجاوز الخامسة عشر بعد .. كان مخموراً ومخدراً .. يتسامر مع رفاقه من خلال ((الموبايل)) وأغمض عينيه المرهقة ساخراً من مزحة قالها له رفيقة علي الهاتف، وهو علي حالة من السرعة والتخدير .. و ..

إنتهي كل شيء في لحظة .. وجلس يبكي مرتعباً .

وجاءت سيارتي الإسعاف والشرطة .. الأولى لتحمل الأشلاء المتناثرة والثانية لتقتاد ذلك الصبي المخدور المدلل الذي تولي بطيشه وفساد نشأته إنهاء حياة فتاة في ريعان شبابها .

خمسة وعشرون عاماً أطفأها ذلك المدلل في لحظة .

تحركت ببطء وهي تسقط نظرها فوق سطح البحر، وكأنها تبحث بين الأمواج عن حقيقة ما حدث .. وما يحدث .

وتذكرت



تذكرت موقف .. زوج والدتها الذي بهره ثراء والد الصبي الطائش وكيف جاهد في سبيل إقناع والداتها بالصفقة .. صفقة الموت .. مليون ونصف المليون جنية مقابل أن يتم التنازل عن الدعوة القضائية ضد قاتل شقيقتها .. تنازل عن روح أغتيلت .. وجسد تمزق .

وشباب أختطفه الموت بلا مقدمات .

تذكرت والدتها وهي تفقد مقاومتها رويداً كما ينساب الماء من بين الانامل .. بالاقناع تارة وبالتهديد بالطلاق تارة آخري .

تذكرت صفقة الموت .. وهي تتشح بوشاح المنطق الغريب .. والرهيب، فزوج والدتها لديه طفله من زوجتة السابقة .. وهيام سالم لازالت علي قيد الحياة .. والقتيلة لن تعود الي الحياة .

فما المانع إذن من اتمام الصفقة !!

سرت قشعريره في جسدها عندما إستعادت من ذاكرتها وهي تصرخ ملتاعة تطالب بالعدل .. العدل فقط .. وكأن شقيقتها تناشدها من العالم الاخر ترجوها أن تقتص من قاتلها .. كانت تشعر بنزيف قلبها يندفع الي حلقها .. وهي تهيب بأمها بالا تقبل .. بأسم كل نواميس الحياة .. بأسم الامومة .. والطبيعة .. والضمير .. والذكريات الجميلة .. بأسم حماية الاخرين من أمثال هؤلاء .. ولكن باءت كل محاولاتها بالفشل .. و ..

اليوم موعد تنفيذ هذه المقايضة الظالمة المظلمة .

رددت في صمت .

يا إلهي .. الي هذا الحد أصبح لكل شيء مقابل .. أصبحت الضمائر والسرائر، والحب والوجدان .. يباع ويشتري .

أصبح للموت ثمن، وكأنه سلعة تتهافت عليها الانفس القذرة.

لتربح من تسويقها .. وكأن الموت لم يعد عند البعض نهاية قاتمة بل هي بداية للحياة السعيدة .. يا الهي .. متي ترفع العدالة غمامتها من فوق أعينها .

التفتت الي الطريق .. أشارت الي سيارة أجرة وأندست بداخلها مرددة :

- سموحة يا أسطي .

القت برأسها الي الوراء قليلاً وأغمضت جفنيها .. كأنها لا ترغب أن تري شيئاً غير الذي بداخلها .

كانت هيام محددة الملامح، تميل الي البياض .. شعرها يتدلي بسيولة الي منتصف ظهرها .. حاجبيها بلون الليل يأخذا شكل الهلال .. فمها أقرب الي الاستدارة، وعنق شامخ وقوام ممشوق .. أنوثتها تسبق خطواتها، ونبرة صوتها .

إنتبهت لصوت السائق .

- أي رقم يا هانم .

أشارت الي البناء قائلة :

- هنا يا أسطي ... شكراً .

لاحظت تواجد أكثر من سيارة فارهه مصطفة أمام المنزل .. وما كادت تدخل الي البوابة حتي فوجئت بمجموعة من الرجال يحيطون بأحدهم وكأنهم يزيحون من أمامه أتربة الهواء ليدخل الي رئتيه نقياً .. يكاد الواحد منهم أن يحمله من الارض خشية عليه من إرهاق السير الي سيارته التي تنتظره .. و ..

لمحت زوج والدتها وهو يقف عند نهاية درجات السلم وهو يلوح لهم مردداً كلمات الترحيب .. والتبجيل .

أدركت أن الصفقة قد تمت .

تجاوزته وهي تنظر اليه بإذدراء .

وما أن دخلت الشقة حتي رأت والدتها وهي تجلس ساكنه في مواجهتها .. فبادرتها دون تلكؤ:

- هل أسترحت الان .. وحصلتي علي مقابل موت ابنتك .

حركت الام شفتيها بصعوبة وهي تقول :

- يا هيام لا تكوني قاسية القلب هكذا .

إبتسمت بسخرية وقالت :

أنتم تتحدثون عن القسوة .. و ..

وفي هذه اللحظة ظهر زوج والدتها من خلفها .. قائلا :

- لست أدري ما الذي سيعود عليك بالنفع اذا ما عاقبتي ذلك الصبي .. هل ستعود إليك شقيقتك .. أم ..

وقاطعته بإنفعال مكبوت :

- بل سيعود الي ضميري الملتاع .. أنا لا أطالب بالانتقام بقدر ما أطالب بالعدالة .

فاجأها قائلا :

- العدالة .. ألا نرفض هبه القدر .. مليون ونصف جنية .. سيجعلوننا نطفو علي سطح الدنيا .. سنعيش كما يعيش الاخرين أمثال والد الصبي .. هذه مقايضة عادلة .. نحن نخرج إبنه من وراء القضبان .. وندخل نحن دنيا الاثرياء .

- بل قل ستدخلوها أنتم .. أما أنا فلا .

قالت الام علي استحياء :

ماذا تقصدين يا هيام ؟

- أقصد أنني من اليوم سأنجو بنفسي بعيداً عنكم .. فمن يدري قد تعجبكم الصفقة وتقبضون ثمن حياتي .. بشكل مدبر هذه المرة

حاول الزوج أن يثور لكبرياءوه المزيف :

- أهكذا يكون المقابل بعد أن توليت رعايتكما أكثر من خمس سنوات منذ وفاة أبيك .. أهذا هو جزاء الاحسان .. لولاي

لكنتما الان في الطريق .. لا أحد أهتم بكما وليس لكما أحد .. ومن أجل أمك إرتضيت أن أتحمل كل هذه الاعباء والان تتهمينني أنا وأمك بأننا نستثمر موت أختك

راح يلوح بيديه وهو يستطرد :

- أي عدالة تلك التي تتحدثين عنها .. إنك تتكلمين كما لو كنت أنا قاتلها .. كأننا أنا وامك قمنا بتدبير ذلك الحادث .. ماذا لو كان السائق فقيراً .. هل كنتي ستفعلين نفس الشيء .. أم لمجرد إن والده ثري فتحركت بداخلك نوازع الحقد علي الاخرين .. و ..

قاطعته بحده :

- من أجل أمي فقط سأحتفظ لنفس برأي فيك أما أمي نفسها فلها الله .. فأنا أشفق عليها من عذاب الضمير عندما تفيق من غيبوبه الثراء المفاجيء .

التفت الزوج الي الام وكأنه يحثها علي اتخاذ موقف ما .. أو يدفعها للتدخل في الحديث ... وتدخلت مغلوبة علي أمرها قائلة:

- يا حبيبتي أنت لا تدري كم أنا مكلومة .. أنا أمكما .. ولكنك تعلمين الظروف .. وهذه إرادة الله .. وعمك يتكلم بالمنطق .. و ..

قاطعتها وهي تقاوم دمعه عينيها :

- أي منطق هذا .. الامومة التي تتحدثين عنها ليست مقابلها أوراق نقدية .. ولكنها أحاسيس وجدانية كيف طاوعك قلبك لان تشتركي في مثل هذه المقايضة .. و..

صمتت برهه رمقت خلالها زوج أمها بغضب .. واستطردت:

- علي كل حال أنت من حقك أن تقايضي وتساومي علي حياتك .. أو علي زوجك .. أو حتي علي مشاعرك .. ولكن .. أنت ليس من حقك أن تقايضي علي توأمي .. علي شريكه روحي وعمري .. ولهذا .. فنحن لن نلتقي علي ذلك الاتفاق ولن أقبل أن آخذ مقابلا مادياً لروح أختي التي اختفت .. وجسدها الذي تشتت أجزاءه .. لن أقايض علي ذكريات من شاركتني حياتي .. حتي ونحن لازلنا في جوف رحمك .

قال الزوج بلا مبالاة :

- اذا كان ما يشغلك هو نظرة الاخرين لك .. أو تخشين اللوم من أي أحد .. فأنا أطمئنك لقد قررنا أن ننتقل الي مكان آخر .. ومنطقة أخري .. فلم يعد مستوانا المالي يسمح بالبقاء هنا .. و ..

سكت لحظة .. ثم أردف في فتور :

- ما رأيك .

لو تركنا المدينة بأكملها .. ونذهب لنعيش بالقاهرة في أحد

مناطقها الراقية .

قالت الام بلا تردد :

- هذه فكرة جيدة ..

التفتت نحوها هيام .. وقالت :

- إذهبي .. أو إهربي الي أي مكان .. وأريني بعد ذلك كيف ستهربين من نفسك .

وبلا مقدمات تحول زوج الام الي النقيض وكشف عن وجهه القبيح بنزعه قناع الزيف الذي كان يتواري خلفه وأطلق صيحه أفزعت الام قبل هيام.. صارخاً:

- إخرسي .. وكفي مهاترات سخيفة .. ولا تحاولي أن ترتدي رداء الضحية، وتتعللي بالقيم والمباديء . و ..

إقترب منها بخطوة وكأنه يتأهب لصفعها .. ثم أردف :

- أنصتي جيداً .. لقد اتخذنا قرارنا وانتهينا .. سواء إن كنت راضية أم لم ترضي .

تأملته برهه في صمت وكأنها تحفر صورته الجديدة في أعماقها ثم قالت بهدوء :

- أنت محق في كل كلمة أعلنتها أمامي .. وأنا ايضا قررت الرحيل .. سأذهب الي عمتي بالسويس .. وهي ..

ولكنه قاطعها بضحكة ساخرة .. ومجلجلة :

- عمتك .. يالك من ساذجة .. أين كانت عمتك عندما توفي أبيك .. وتركتك إنت وأختك بلا مأوي أو رقيب .. أين كانت عمتك طوال السنوات الخمس الماضية .. أنسيتي كيف تهربت منكما وتعللت بضيق ذات اليد .. أنسيتي كيف كانت معاملة زوجها لكما .. الان تقولين عمتك .. وهي بنفسها التي أتصلت بي ترجوني أن أنعم عليكما بعطفي ورعايتي .. أهكذا يكون الجزاء يالك من ناكرة للجميل .. فلتذهبي لعمتك أو حتي للشيطان

أجابت وهي تنظر الي امها :

- نعم سأذهب .. وبشهادتي سأبحث عن عمل، وهناك علي الاقل سأكون في مأمن علي حياتي .

إبتسم بإذدراء .

ثم أستدار وأختفي داخل أحدي الغرف .. بينما جاهدت هيام من أجل أن تلحق بدمعتها قبل أن تنتحر فوق جبينها .. ولكنها فشلت .

فأستدارت هي الاخري دون أن تتفوه ببنت شفه . ودلفت الي غرفتها وراحت تلملم في أشياءها داخل حقيبتها وكأنها تلملم شتات كيانها الممزق .

وكأنهم يتابعون أحداث حياتهم من وراء ستار الزمن ..

دون أن يتعايشوا معها .. ينظرون بلا رؤية .. ويتحدثون بلا صدي كأنهم أشباح يسيرون من خلال زمن متوقف ويهرولون فوق طريق لا نهاية له .

ظل الصمت يخيم علي المكان الي أن غادرت هيام سالم المنزل الذي قضت به خمس سنوات .. وأخذت طريقها الي السويس .

هاجمتها كلمات زوج الام الاخيرة لها .. وهو يعدد مواقف عمتها السابقة وكيف تخلت عنها وعن شقيقتها .. وكيف تعللت بالظروف وبقسوة الحياة، وبأن منزلها لا يتسع حتي لابناءها .

إضطربت نبضات قلبها عندما تسلل الي خاطرها موقف عمتها منها عندما تصل اليها .. تخيلتها تعيد ما كان من سلبيتها .. أو تزداد نفوراً منها .. أن تلعن تلك الصلة .

راودها إحساس بالتراجع .. ولكنها واصلت الطريق الي السويس فهي الان لا تملك حق التراجع .. و ..

وصلت .

وهناك أدركت بأنها كانت تعيش غيبوبه الخوف .. وأن الوهم صور لها أشياء لا يمكن حدوثها.

فلقد كان إستقبال العمه يفوق كل التصورات .. ولقاء زوجها تجاوز كل التوقعات .. الجميع أحاطوها بكل الحب وبالترحاب

المبالغ فيه .. زوج العمه أصدر أوامره بان يترك أبناءوه الثلاثة .. بنتان وولد .. غرفة من غرفتيهما من أجل هيام .

والعمة راحت تبثها الاشواق والحنين وهي تزرف الدمع علي الشقيقة الراحلة .. والابناء يتسابقون في الترحيب بها، بل أمطروها باللوم الهاديء لانها لم تكن علي اتصال بهم .

كان لقاءاً رائعاً .

ما أجمل أن يجد الانسان نفسه وسط أحباءه .. وما أقصي أن يكتشف حقيقة واقعة .

وفي دقائق معدوده كان كل شيء متأهب لاستقبالها .. حيث إعدت غرفة النوم لها .. وطلبوا منها أن تلجأ الي النوم وان يرجئوا الحديث الي الغد حتي تتمكن من الراحة بعد رحلة العناء الطويلة .. وأستجابت هيام وهي لازالت في نشوه اللقاء .. وإنتصار قرارها .. وأغلقت جفنيها في نوم عميق وكأنها تتخلص من كابوس حياتها السابقة .

نامت .. وهي لا تدري أن عيون أخري ساهرة .. ليس من أجلها ولكن رغبة في السباق مع الزمن .. وعقول حائرة تبحث عن أفكار وتدابير يحيطون بها كشباك الصياد .

نامت .. وهي لا تدري أن أنباء المقايضة بموت أختها تطايرت الي كل مكان ووصلت اليهم قبل أنفاسها المتلهفة عليهم .

مليون ونصف المليون جنية .

قالتها العمة وهي تستلقي بجوار زوجها علي الفراش، وهو يحلق بنظرته الي سقف الغرفة وكأنه يخترق حاجز واقعة البسيط الي عالم الاحلام .. والامال .

ردد هو الاخر كأنه يحدث نفسه :

أجل .. مليون ونصف .

إتكأت قليلاً وهي تنظر إليه مستفسره :

- تعتقد كم سيكون نصيبها !!

مط الزوج شفتيه معرباً عن حيرته قبل أن يجيب :

- لست أدري .. فزوج أمها رجل طماع وجشع .. قد يستحوذ علي القدر الاكبر من أجل إبنته الصغيرة .. وأنتي تعلمي ان والدتها مسلوبة الارادة أمامه .

قالت وكأنها عالمة ببواطن الامور :

- لا .. لا .. هيام فتاة عنيدة .. وهي أساساً لا تميل الي زوج أمها ولن تسمح له بإغتصاب حقها .. و ..

إذدادت إلتصاقاً به وهي تستطرد :

- إسمع .. في الصباح سأحاول أن أعرف منها تفاصيل الامور .. انا اعتقد بأنها حصلت علي نصف المبلغ .. و ..

قاطعها بشغف :

- حتى لو كان الثلث يا إمراءه .. أتعلمي كم سيكون .. نصف مليون جنية .. خمسمائة ألف جنية .. كل مائة الف من هذا المبلغ ممكن أن يحل مشاكل كثيرة عندنا .

تدخلت بحماس :

- ولكن كيف ... آه .. ما رأيك لو نزوجها لابننا مجدي .

لكزها بقبضة يده وهو يقول :

- مجدي من يامعتوهه .. إبنك لا يزال في العشرين من عمره .. هي أكبر منه بخمس سنوات .. فكيف أن ...

ولكنها واصلت أمانيها مسترسله :

- إذن نقنعها بحكمتك في إدارة المشاريع .. وعليها أن تترك لنا نفسها ونحن نتولي أمور استثمار أموالها .

إبتسم فى زهو قائلا :

- نعم .. فأنا كما تعلمين لا ينافسني أحد في أفكاري الاستثمارية.

رددت :

- الاستثمارية فقط .. أنت يا عزيزي لا ينافسك أحد في كل شيء .. و ..

ألقت بجسدها المترهل فوقه حتي كاد أن يلفظ أنفاسه .

و.. في الصباح استيقظت هيام علي صوت عمتها وهي تحمل لها إفطارها قائلة بحب :

- صباح الخير .. يا إبنه أخي الحبيبة .
- صباح الخير يا عمتي .. يبدو أنني إستغرقت في النوم طويلاً.
- علي مهلك يا حبيبتي .. استيقظي وقتما تشائين .. فماذا وراءك حتي تبكري في الاستيقاظ .

جلست علي طرف الفراش قبل أن تقول :

- لا يا عمتي .. أنا لدي أعمال كثيرة يجب أن أقوم بها .

غابت العمة للحظات مع نفسها وكأنها تتخيل أشياء كثيرة عن طبيعة الاعمال المرتبطة بها هيام .. ولكن فضولها راح يدغدغ حواسها وهي تتساءل بحذر :

- أي أعمال يا عزيزتي .. علي كل حال هناك متسعاً من الوقت لا يزال امامك .. و ..

ولكنها صمتت عندما ظهر زوج عمتها وهو يحمل صينية صغيرة فوقها كوباً من العصير .. وأقترب منها متودداً :

- صباح الفل يا عروسه .. أنا حمدت الله أن اليوم اجازة لكي أستقبل وجهك البشوش هذا الصباح .

نهضت من مكانها في إضطراب حقيقي قبل أن تقول :

- معقول هذا يا عمي .. أنت بنفسك تحمل لي كوب العصير .. هذا كثير جداً ..

بادرها وكأنه صادق :

- يبدو إنك لا تعلمي قدر محبتنا جميعاً لك .

وتدخلت العمة قائلة :

- وحياتك يا هيام طول عمري بأعتبرك مثل إبنتي تماماً .

كادت تبكي من فرط سعادتها وهي تجيبها :

- ربنا يحفظكما لي دائما .. فلولاكما يعلم الله ما كان سيحدث لي وأنا في هذه الظروف .

إنبري الزوج قائلاً بشهامة :

- أنا مثل أبوك يا أبنتي ولا تخشي شيئاً .. سأكون خير سند لك في كل شئون أعمالك القادمة .. و ..

ضحك بسماجة :

- اعتبريني مديراً لاعمالك واستثماراتك .

جلست بجوار عمتها وكأنها تحتمي بها .. ثم قالت :

- أي إستثمارات يا عمي .. أنا كل ما ارجوه منك ان تساعدني لكي أحصل علي عمل حتي لا أرهقكما فأنا أعلم قدر مسئوليتكما .

وفي صيحة واحدة قالا الاثنان :

- عمل .. ماذا تعني بكلمة عمل يا هيام .

اجابت علي استحياء :

- أنا حاصلة علي دبلوم التجارة .. و ..

قاطعها الرجل بجدية :

وما دخل حصولك علي الشهادة وبين استثمار اموالك .. الموضوع لا يحتاج الي مؤهلات .. ثم ..

ولكنها تردد بدهشة :

- أموالي .. أنا لا أملك أية أموال يا عمي .. لقد رفضت أن أخذ مقابلاً لموت أختي .. و ..

قالت العمة وكأنها تصرخ :

- رفضتي .. أفهم من هذا إنك حضرتي الينا لتبحثين عن عمل ..

- نعم يا عمتي ..

وبلا شعور همست :

- يا نهار أسود .. أنتي جاده فيما تقولين .

- نعم يا عمتي .. فأنا لا أستطيع أن ..

ولكن الزوج ينهض فجأة تاثراً وهو يقول :

- أنت مجنونة بكل تأكيد .

جلست علي حافة الفراش وكأنها تسقط .. ثم قالت :

- مجنونة .. لأنني لم أقايض بروح أختي وحياتها .. مجنونة. لانني لم أشترك في مثل هذه الجريمة اللاإنسانية .

التفت الرجل بنظره سريعة الي زوجته ... ثم تناول كوب العصير الذي كان قد أتي به من اجلها، ودفع به في جوفه وكأنه

يطفيء لهيب الغيظ في أعماقة .. ثم أجاب بهدوء :
- في الحقيقة يا أبنتي أنت تعلمين ظروفي .. وكنت أتمني أن أساعدك بأي شيء .. ولكن الظروف أقوي منا جميعاً .
- ولكني لا أطلب معاونه مادية .. فقط أريد مساعدتك للبحث لي عن عمل .

قال بإستياء :
- عمل .. أي عمل الذي تبحثين عنه .. أنا نفسي أصبحت غير قادراً علي ملاحقة متطلبات حياة أسرتي .. و ..

قاطعته الزوجة قائلة :
- الناس أختلفت اليوم يا هيام .. يرحم الله والدك .. الذي ترككما هكذا .. وها هي أمك تنعم بحياتها مع رجل آخر وتركتك مسكينة لا مال ولا معين .. ولهذا من حق عمك أن يغضب من تصرفك .. و ..

وهنا أقحم الزوج نفسه في الحديث .. وبنبره هادئة .. قال :
- يا هيام يا أبنتي الحياة أصعب مما تتصورينها .. ومسألة المباديء والقيم التي تتحدثين عنها .. ما هي إلا شعارات يرفعونها البعض عند اللزوم فقط .. المباديء لن تسدد أقساط مصاريف المدارس ولن تشبع البطون الجائعة ولن تسكت صراخها ..

صمت لحظة إذدرد فيها ريقة .. ثم أردف :

- علي كل حال يا أبنتي .. أنت صاحبة القرار .. وبشرفي إذا كان في استطاعتي مساعدتك لكنت فعلت .. ولكن .. لعنة الله علي الظروف .. و .. الفقر .

وقفت .

وهي تحاول أن تكون متماسكة .. وقالت بحزم :

- من فضلكما لانني سوف أبدل ملابسي ... و ...

مرة أخري تجد هيام سالم نفسها علي الطريق .. طريق الضباب والغموض والترقب .. وكأنها .. ولدت لتوها فقط لتري الحياة لأول لحظة .. حياة مجهولة المستقبل، مليئة بالصراع والخوف .. طريق تضيع فوقه الامال وتقبر فيه الاحلام .

وجدت نفسها وحيدة تماماً .. وكأنها تخطو خطوات بلا طريق .

تبحث عن لا شيء .. وكل شيء .. شاردة الفكر بالرغم من أن صورة شقيقتها الراحلة قفزت الي ذهنها حتي كادت أن تحجب عنها رؤية الاخرين .. وأستعادت رحلة حياتها معها .. و..

تحسست بأناملها الرقيقة بضع الاساور التي في يدها، ثم تسللت بيدها الي عنقها لتتلمس أطراف القلادة الكبيرة التي تتزين بها .

شعرت بقدميها تكاد تسقطها .. أحست بضعف شديد وخوف أشد .. و .. إستسلمت لبكاء مرير .. لحظة بكاء .. جمعت في طياتها يوم أن توفي والدها ويوم أن قتلت شقيقتها .

كانت تبكي وهي لا تدري إن كان بكاؤها من أجل الراحلان .. أم من أجل نفسها.

٢

كان صباحاً ثائراً .. مختلفاً في كل شئْ .. الشمس تكاد تسلط أشعتها الذهبية للحظات قليلة ثم تخبو وراء ضباب السحب الرمادية الكثيفة .. الرياح ليس لها إتجاه، تارة تندفع من اليمين بقوة ثم ما تلبث تدور حول نفسها حلزونياً .. الرعد يصرخ والبرق يعوي والأمطار تنهمر وكأنها دموع البشرية بأثرها.

هيام سالم لازالت تبكي .. وهي تطل بنظرها من وراء نافذه الفندق المتواضع التي أستقرت به بعد أن باعت كل ما تملك من حلي ذهبية .

تبكي كرامتها الذبيحة وحيرتها الشديدة .. كان موقف عمتها يفوق كل احتمالاتها .. أحست بالمهانة تمزق كل شرايين الأنتماء في حياتها ..وما تبقى معها من نقود راح يتسرب من بين أصابعها بعد أن مكثت أكثر من أسبوع وهي تداوم على البحث عن عمل .

اليأس إتخذ مكانه في فكرها و الخوف من الغد أستقر في أعماقها .

إرشدني يا إلهي ..

ماذا أفعل .. أعود إلى زوج أمي راكعة منهارة وأطلب

المغفرة من أجل أن يسمح لي مرة أخرى بالحياة معهم أعود لأطالب بميراث دماء إختى حتى أتمكن من مواصلة الحياة .

أعود إلى أمي لاساومها على مشاعر الأمومة وأطالبها بأن تنقذني من براثن الغربة والإغتراب .

أعود لإعلن للجميع بأنني كنت غافلة .. فاشلة .. ساذجة وبان الدنيا حقاً ترفع شعار بأن لا عطاء بلا مقابل .

وعادت ....

وما كادت تصل إلى منزلها بالإسكندرية حتى تلقفتها إحدى جيرانها قائلة بتودد :

- حمداً لله على سلامتك ياهيام .. ليتك كنت وصلتى مبكراً قليلاً .. لقد رحلوا الأن فقط .. منذ دقائق قليلة

تساءلت بهدوء يغلفه الأعياء :

- من الذى رحل .

- أمك وزوجها وأبنته .. لقد إنتقلوا إلي مسكنهم الجديد ببورسعيد .. يقولون إنها منطقة حرة .. وتنازلوا عن شقتكم لأسرة أخرى عن طريق السمسار .

وقبل أن تتفوه هيام بحرف واحد، لا حقتها الأخرى قائلة :

- لقد تركوا لك العنوان الجديد .. والدتك أبلغتني أن أعطيه لك إذا ما حضرتي في أي وقت .

ومدت إليها بوريقة صغيرة .. تناولتها بيد مرتجفة وفكر غائب .

لامفر .. ليس أمامي غير العودة .. العودة لإرادة الواقع ..الأحساس بالوحدة قاتل .. أشعر وكأنني بلا هوية ..بلا كيان .. بلا ضمير ولا فكر .. لامفر .. يجب أن أعود إلى أمي فهي الوحيدة لى في هذا الكون الغامض الشرس هى التي يمكنها أن ترفع عن كاهلي خطأ كل تصوراتي .. وتمنحني الحنان الذي كاد أن يتسرب من وجداني .

و... ذهبت .. إلى بورسعيد ..وهناك .. كانت للأقدار كلمة أخرى .. كلمة أحرفها من لهيب .. قاسية، مريرة، لها رنين بلا صدى .. ودوامات بلا نهاية ..ومشاعر متناثرة، كلمة اسقطت من حياتها عمر مضيْ بأكمله وطرحت تحت قدميها ليال غامضة مقبلة .

هناك فوجئت بمن يقول لها بلا مبالاة :

- أجل يا أبنتي .. لقد أتت إلينا أسرة صغيرة العدد لكي تشترى وتقطن في هذا المكان .. ولكن للإسف لم نتفق وأنصرفوا ..

- قالت هيام وكأنها تخرج الكلمات بأظافرها من حنجرتها :

- ألا تعلموا أين ذهبوا .. ؟

- لا ..

ولأول مرة تدرك هيام بأن الأحلام ليست دائماً وردية فقد تقتحمها الكوابيس .. أو يقتحمها الواقع المستتر .. مستتر ولكنه ليس مزيفاً .. لأنه حقيقة .٠. أدركت هيام إن مرحلة الأختيار قد إنتهت .. وأن ليس من حقها طرح البدائل .. لابديل أمامها غير مواجهة الواقع .. مهما كان هذا الواقع .. ليس عليها غير مجابهته .. سواء إستسلاماً أو طواعية .. لا شئ غير المواجهة .

عادت إلى حيث لا تدرى .. الغروب يسبقها .. غروب الشمس .. وغربة النفس .

إلى أين ..؟

مرة ثالثة ترددها دون إرادة ..إلى أين .. ؟ .

فلا مكان يأويها .. ولاغطاء يحميها .. ولا مقابل يفديها .

إلى أين . ؟

همست إلى نفسها :

.. أعود إلى الإسكندرية .. ربما تكون هناك معلومة جديدة قد وصلت إلى الجارة .

و.. إستقلت القطار عائدة إلى موطنها الغريب .. أو إلى غربة موطنها .

وما أن جلست فوق مقعدها حتى ذابت مقاومتها أمام ذلك

الواقع المرير.. وأجهشت في بكاء يكاد قطراته تنفجر ليمزق مقلتيها .. حاولت أن تخفي وجهها بين كفيها لعلها توقف نزيف الدمع الذي صاحبه نهنهة مسموعة .. وفجأة أفزعتها يد مرتعشة وضعت فوق كتفها .. أحست بها وكأنها يد القدر تعيدها إلى نفسها بعد أن أخذتها رحلة البكاء دون توقف .

التفتت إلى جوارها لتجد إمراة عجوز قد تراكمت فوق وجهها تجاعيد سنوات طويلة مضت .

وبصعوبة بادرتها بنبرة واهنة :

- ما بالك يا أبنتي .. لقد مزقتى قلبي ببكاؤك هذا .

مسحت مدامعها بأطراف أصابعها قبل أن تجيب قائلة :

- لاشئْ يا أمي .

رددت المرأة بحنان جارف :

- أمي .. باركك الله يا أبنتي .. فأنا لم أسمع تلك الكلمة منذ عشرون عاماً على الأقل .

لم تجد هيام ما تقوله .. فإستطردت السيدة المسنة قائلة :

- أنا لا أتطفل عليك يا أبنتي .. فحياة الإنسان مليئة بأسرارها .. ولكن دموعك الصادقة شعرت بها وكأنها تدفعني لأن أسألك .. فربما يا أبنتي يمكننى أن أقدم لك يد العون .

أجابت بتأدب وقد شعرت بالأمان تجاهها :

- أشكرك يا هانم .. ولكن يبدو إنني إنفعلت قليلاً لمشكلة لدي ولم أستطع أن أتمالك نفسي عن البكاء .
- ومن منا يا صغيرتي في إمكانه أن يتخلص من أشجانه بإرادته و .. صمتت برهة ثم أردفت :
- فأنا ظللت أبكي سنوات طويلة حتى تحجرت دموعي ولم يعد في إمكاني غير معايشة صدى الصراخ الحزين في أعماقي .

وبلا ارادة وجدت هيام نفسها تضع كفها فوق يد المرأة برفق وقالت بصدق :

- أري الحزن في عينيك وكأنك لم تسعدى يوماً في حياتك تمتمت السيدة وكأنها تحدث نفسها .. وهي تهز رأسها ببطئٍ كما لو كانت تحاول أن تطرد الذكريات من مخيلتها :
- أحمد الله أنني لا زلت قادرة على الحركة .. فلقد حضرت إلى بورسعيد لأشترى بعض الأدوية الخاصة بزوجي لأن دواؤه أوشك على الانتهاء ..

قالت هيام وهي ترغب في مواصلة الحديث :

- أهو مشغول إلى هذا الحد .. ولذا لم يستطع إصطحابك .

أجابت المرأة بأسى :

- أنه طريح الفراش .. قعيد لا يقوى على الحركة .. لقد أصابه الشلل الكامل منذ أكثر من عشرون عاماً . و ...

صمتت برهة أطلقت من خلالها زفرة طويلة قبل أن تستطرد قائلة :

- مسكين لم يتحمل صدمة وفاة ولدنا الوحيد .. ورحمة ربنا جعلتني لا زلت للإن أستطيع الحركة حتى أتمكن من رعايته.

ثم التفتت إليها وأردفت بفخر :

- إبننا مات شهيداً في حرب أكتوبر .. إبننا بطل وذلك هو عزاؤنا الوحيد .

إنفعلت هيام تماماً بحديث المرأة، وكأنها نست مشكلتها وهي تتساءل بكل صدق :

- والأهل والأقارب .. والأصدقاء .. ألم تجدي أحداً منهم يحمل عنك عناء السفر ويأتيك بالدواء .

أجابت السيدة بطيبة كبيرة :

- الدنيا تغيرت يا أبنتي .. والجميع كل واحد منهم مهموم بمشاكله الخاصة .. ثم .. ثم المريض كالفقير لا يحتمل الأخرون الإقتراب منه كثيراً .

ترقرقت الدموع في عين العجوز وهي تحاول إخفاؤها وأهتزت هيام متأثرة من تلك اللحظة .. فربتت على كتفها بحنان قائلة :

- أعانك الله يا أمي وأمدك بالصحة حتى تتمكنى من مواصلة رسالتك إلى أن يقدر الله شفاء زوجك

- أنا لم أيأس مطلقاً من رحمة الله .. وعندى أمل كبير في أن يشفي زوجي .. فكلانا في حاجة إلى الأخر .. ويكفيني أنفاسه في المنزل فأنا أستمد منها القوة والصبر..و..

نظرت إلى النافذه مرددة :

- يبدوا أننا وصلنا إلى محطة القاهرة .. سامحيني يا أبنتي فلقد ظللت أثرثر عن مشاكلي طوال الطريق .. وأنتى على ما يبدو لديك ما يكفيك من مشاكل .

سارعت هيام قائلة :

- بالعكس ياهانم .. فحديثك جعلنى أطمئن كثيراً بأن الدنيا لا زالت بخير وبأن فيها إناس طيبون مثل حضرتك .

توقف القطار تماماً .. داخل المحطة .. وقبل أن تهم السيدة بالنهوض تساءلت :

- هل ينتظرك أحد بالمحطة ياأبنتي .

لا .. أنا طريقي الأسكندرية .. وسأستقل وسيلة أخرى إلى هناك .. دعينى أعاونك على النهوض .

وتناولت ذراع المرأة برفق، وراحت تشق بها الزحام إلى أن هبطا من القطار .. وما إن لمست قدم المرأة الرصيف حتى هوت فجأة وقد خارت قواها تماماً .. صارخة وهي متشبثة بكيس الدواء والهلع في نظرة عينيها :

- إنقذيني يا أبنتي قبل أن أغيب عن الوعي .

وراحت في غيبوبة وهي مستندة برأسها على صدر هيام التي لم تجد وسيلة إلا الصراخ والإستغاثة ..وتجمع البعض حولها وتقدم شابان وحملا السيدة وهرولا بها إلي خارج المحطة .

وهيام تطلق ساقيها لتلحق بهما إلى أن وصلا إلى سيارة أجرة وأدخلوها في المقعد الخلفي، وبلا تردد قفزت هيام داخل السيارة وهي تقول للسائق :

- إلى أقرب مستشفى من فضلك .

الأحداث توالت بسرعة غريبة ..وكأنها كابوس مباغت إقتحم حياة هيام بدون مقدمات .

المرأة ترقد فوق الفراش داخل عنبر المستشفى بلا حراك وقد إلتصقت بأيديها بعض الأنابيب الطبية وأصبح وسيلتها في التنفس عن طريق أجهزة الأكسجين .. وهي في شبه غيبوبة تامة .

تساءلت هيام .. وأخبروها بإقتضاب .

.. إرتفاع مفاجئ في ضغط الدم وغيبوبة سكر .

جلست بجوارها والحيرة تملؤ كيانها لا تعرف كيف تتصرف.

إدراة المستشفى طلبوا بيانات عن المرأة .. أشارت إليهم تجاه حقيبتها ليأخذوا منها بطاقتها .. سألوها عن صلتها بها ..



لم تجب .. الدوامة تلف بأفكارها وتشتتها .. كل شئ بالنسبة لها توقف أمام ذلك الحدث .

وتسلل الزمن مع أنفاس العجوز المتلاحقة .. ساعتان وهيام تسلط نظرها عليها في صمت .. لاحظت إنها بدأت تحرك جفونها بصعوبة، وبمجرد أن لمحتها حتى أشارت إليها برأسها والدموع تنساب من بين طرفي عينيها .. إقتربت منها بحذر .. وبصعوبة بالغة إستطاعت أن تفهم ما تريده العجوز وهي تردد بكلمات غير مرتبة :

- زوجي .. زوجي يا أبنتي .. سيموت .. دواؤه .. إنقذيه يا أبنتي .. عنواني بالبطاقة .. الدور الثالث .. شقة أربعة .. أسمه فؤاد .. زوجي سيموت .. الدواء يا أبنتي. لا تخبريه بما حدث لي المفتاح في الحقيبة .. طمئنيه .. حاولي أن ...

وراحت مرة أخرى في غيبوبة كاملة .. و ..

وبلهفة متوترة، سارعت هيام بنقل بيانات العنوان من البطاقة وتناولت كيس الدواء من جوار السيدة .. لحظات عصيبة .. وانطلقت مسرعة تقطع ممر المستشفى إلى خارجها .. ودلفت داخل أول سيارة أجرة صادفتها ..ورددت مذعورة :

- مصر الجديدة من فضلك .. شارع الحجاز .. بسرعة أرجوك.

دقائق قليلة .. وكانت سيارة الأجرة قد وصلت إلى المكان

الذي حددته هيام للسائق ..وبنفس السرعة إستقلت المصعد إلى الدور الثالث شقة أربعة .. و ..

تسمرت في مكانها أمام باب الشقة تلتقط أنفاسها وتستعيد شتات أفكارها .. تلفتت حولها وكأنها لصه تتبين المكان .. وبيد مرتعشة وقلب مرتعب دست المفتاح في الباب وفتحته .. المدخل مظلم .. والصمت يحيط بالمكان كله .. وما كادت تغلق الباب خلفها حتى ترامى إلى مسامعها صوت هزيل من أحدى الغرف .

- صفية .. هل حضرتي يا صفية .

كادت هيام تسمع نبضات قلبها تعلو فوق صوت الرجل، وكل كيانها ينتفض إضطراباً .. وتقدمت بخطى متعثرة .. والرجل يواصل النداء :

- صفية .. صفية .

و .. صمت مع نظرة مسائلة وحائرة عندما رأى هيام أمامه وهي تقف على بعد خطوات منه وقد أحتبست أحرف الكلمات في جوفها .. وبادرها بنبرة ضعيفة متساءلاً :

- من أنتى يا أبنتي .

تقدمت نحوه وهي تحاول أن تستجمع إتزانها .. ثم أجابت بهدوء .

- أنا حضرت من طرف صفية هانم .. أنا هيام سالم .. أنا ..



قاطعها الرجل والرعب يملؤ نظرته :

- ماذا حدث لصفية .. أين زوجتى ؟

إزدادت إقتراباً منه وقد تشجعت قليلاً :

- إنها بخير .. ولكن القطار تحرك قبل أن تصعده .. فطلبت منى أن أحضر لك الدواء لحين تلحق بالموعد الثاني .

أشار براسه مبدياً عدم إقتناعه .. وقبل أن يتساءل من جديد أردفت قائلة :

- المهم أسمح لى أن أعطيك الدواء أولاً .. ثم نتحدث كما تريد بعد ذلك .. أرجوك أخبرني بالأنواع التى تحتاجها الأن .. من فضلك ساعدني لأنها طلبت منى ذلك .

وما أقساها لحظة الضعف .. اللحظة التى يجد الأنسان فيها نفسه لا يملك غير الإستسلام .. مقهوراً أو عاجزاً .. لحظة لا رغبات فيها ولا حقوق .. لا أختيارات ولا بدائل .. لحظة بلا ردود أفعال .. ساكنة .. بائسة كأنها عدم .

من خلال تلك اللحظة بدأ الرجل يرشد عن إحتياجاته للدواء وهي تناوله أياه بحنان بالغ وهومستجيباً ومستسلماً، لا شئ يفعله غير أنه يتلقى الدواء في فمه صامتاً .. تأملته خلسه .. كان نحيفاً لدرجة أنه يكاد يغوص داخل الفراش .. عيناه زابلتان ووجنتيه شاحبتان شعر رأسه مهدل وشاربه غير منسق .. رائحة

الموت تحيط به .. جلست على طرف السرير وبدأت بحذر تنقل إليه المعلومات التى يريدها برفق خشية من الصدمة .. ثم قالت تطمئنه :

- والأن سأتصل بها بالمستشفى لأجعلها تطمئنك بنفسها . و ..

وبأنامل مرتعشة كانت تدير قرص التليفون وكأنها تخشى أن تتلقى نبأ يكون سبباً في نهاية الرجل .. ولكن الله كان رحيماً به وعلمت بأن المرأة قد إستعادت وعيها ولكنها في حاجة للبقاء بعض الوقت حتى تنتظم حالتها ..وطلبت سماع صوتها .. وما كادت تحدثها حتى توالت لهفتها على زوجها وهي تردد بصوت ملتاع :

- فؤاد .. هل أخذ الدواء يا أبنتي .

ولم تجد هيام ما تفعله غير أن تضع طرف السماعة على إذن الرجل المشلول ليسمع بنفسه صوت زوجته ويطمئن عليها وصمتت تراقب أسمى المشاعر الانسانية التى يمكن أن تربط بين طرفين .. رأت بعينها وأحست بوجدانها كل معاني الحب والوفاء واللهفة الصادقة .. لمست واقعاً مختلفاً تماماً عن واقعها .. النقيضين .. المشاعر التى لا تباع ولاتشترى، الصدق المجرد من كل غاية .. الحب الذي يرويه نبض الشرايين وليس بريق الملايين .. الوفاء وكأنه سلسبيل الحياه عطاء فقط وبلا مقابل .

رأت وسمعت وأحست النبل الأخلاقي والسمو الوجداني ....و ...

أنتبهت على صوت الرجل وهو يزيح أذنه عن السماعة ويقول لها :

- تريدك يا أبنتي .

تناولت السماعة برفق وأخذت تعلق على ما تسمعه مرددة :

الحمد لله .. لقد أخذ الدواء في الوقت المناسب .. حاضر .. لا تخشى شيئاً يا أمي .. أطمئنى تماماً .. سأحضر إليك في الصباح بعد أن أطمئن عليه وأحقق كل رغباته .. إطمئني يا أمي .

ووضعت السماعة .. ثم ألتفت إليه بحنان وصدق قائلة:

- سأقيم معك الليلة في الغرفة المجاورة .. إذا أردت أي شيْ نادنى فوراً وسأكون رهن إشارتك .. وقبل أن يتفوه بكلمة .. لاحقته قائلة بدلال رقيق :

- ياترى ستسمح لى بأن أكون ضيفة عندك الليلة .. أقسم لك أننى سأحاول أن أكون ضيفة خفيفة المقام .. هل ستسمح لى.

ترقرقت إبتسامه راضية فوق شفتى الرجل وعيناه تملؤها نظرة الإمتنان والمودة .. ثم أغلقها مستسلماً للنعاس في رضاء تام وأمان حقيقي .

٣

مرة أخرى تجد هيام نفسها أمام لحظة .. لا أختيار فيها .. كأن الأقدار قد رصدت لحياتها الكثير من المفاجآت .. كان عليها أن تتخذ قراراً .. أي قرار .. وهي لا تدري بأن الدوامة قد سحبتها بالفعل إلى عالم بلا ملامح وإلى طريق لا تعلم كيف بدأ ومتى ينتهي .

في السابق كانت تلهث وراء أي بريق يمنحها الآمان ويساندها على تحمل مسئولية نفسها ..واليوم .. باتت مسئولة عن أسرة صغيرة لا حول ولا قوة لها .

كانت تستيقظ في الصباح مبكراً لتعد كل متطلبات الرجل العجوز من مأكل ودواء، وغيرها من أمور هامة لا يملك حيالها إلا الإستسلام لها .. لملاك الرحمة كما كان يحلو له أن يناديها بذلك .. ثم تسرع إلى المستشفى لتطمئن على المسكينة وتطمئنها على زوجها . لم تشعر قط بلحظة تذمر او ضيق .. لم تسمح لأي سؤال أن يرواد فكرها ولم تنتظر أيه إجابة .. فقط أحست بأنها آمنه .. بل وراضية بكل ما تفعله من أجلهما .. ولكن .. كان لسلطان الموت رأي أخر، حيث فاجأها مرة أخرى بوفاة المرأة المكافحة لتترك بين يديها أقدس رسالة في الوجود وهي رعاية الرجل القعيد ..

كان عليها أن تشحذ كل مقومات إنسانيتها لمواجهة ذلك الموقف العصيب .. إستعانت بضميرها فكان خير عون لها .. ولجأت لكل المعاني الجميلة فترفقت بها وساندتها إستأنست الليالي وهي ساهرة في رعاية الرجل .. واستأسدت في كبرياء واصرار مع كل نهار وهي تبحث عن عمل لعلها تقوى على الإستمرار فيما كلفتها به الحياة إلى أن فوجئت ذات صباح وهي عائدة من رحلة البحث بوجود رجل غريب عنها يجلس بجوار فراش الرجل، وقبل أن ينخلع قلبها من هول المفاجأة من كيفية دخول الرجل إلى الشقة بادرها العجوز قائلاً:

- تعالي يا أبنتي .. تقدمى .. أقدم لك الأستاذ مسعود المحامي وهو صديقي منذ سنوات طويلة.

نهض المحامي من مجلسه وتقدم نحوها مرحباً :

- اهلاً يا هيام هانم .. في الحقيقة لقد كنت شغوفاً لكي أري الملاك البشري الذي طالما سمعت عنه بكل أعجاب وتقدير .

لم تنطق بحرف واحد.. فالأمر بالنسبة لها لا يزال غامضاً.

فلاحقها الرجل الطريح قائلاً بحب وتودد :

- إجلسي بجواري يا حبيبتي .. فأنا أريدك في أمر هام .. و ..

إلتفت تجاه مسعود المحامي مستطرداً :

- إخبرها يا مسعود بكل شئ .. ثم تولى ما يخصك معها .

جلست وكأنها تتهاوى على طرف الفراش بجوار الرجل .. بينما أسترسل المحامي بنبرة جادة قائلاً :

- يا هيام هانم لقد باع (عبد الحميد بك) وتنازل عن كل ما يملك من عقارات وأموال في البنوك لصالحك ....و ....

قبل أن تتفوه بكلمة . فوجئت بيد العجوز المرتعشة وهي تتشبث بكفها وكأنه يرجوها بأن تصمت .. في الوقت الذي عاود المحامي الحديث إليها قائلاً :

- لقد أحضرت موظف الشهر العقاري اليوم .. وأتممت كافة إجراءات البيع والتنازل ..ومن حقك أن تعلمي بكل ما أصبح لك وتملكينه الأن .. كما من حقك أن تغضبي مني لأنني تطفلت عليك ودخلت غرفتك لأحصل على بطاقتك الشخصية لأسجل بياناتك في العقود ....و....

مد إليها بكارت صغير وأردف .

- وهاك عنوان مكتبي وأرقام تليفوناتي . وأرجو أن تشرفيني في مكتبي لأتمم لك باقي الإجراءات ...و...

إنصرف .

دقائق كالحلم .. بل كأنها بلا وجود ... كل شئ في وجدانها كيان بلا فكر ولامشاعر .. دقائق خيل إليها أنها فقدت السمع والبصر النبض والنفس .. النطق والإشارة .. تصورت أن الموت خطفها فجأة هى الأخرى وباتت في عالم الغيب والغموض .

حاولت النظر تجاه الرجل الذي لا يزال ممسكاً بكفها .. ولكنه أغمض جفنيه في رغبة واضحة بعدم الحديث .

وبلا إرادة رددت بصوت مسموع :

ماذا حدث .. ما الذي يحدث !!

ولكن الرجل ظل على حالة ساكناً مغمضاً عينية .. فلم تستطع أن تقاوم رغبتها بأن تضع رأسها فوق صدره بهدوء وراحت تبكي بحرارة كبيرة حتى كادت أن تشعر بدموعها وهي تختلط مع نبضات قلبه اللاهثه .

تبكي فقط .. دون أن تعرف سبباً لبكاؤها .. قد يكون ذلك هو الشئ الوحيد الذي يمكنها أن تعبر به .. الدموع .. تلك القطرات الغريبة التى يستحيل أن يحدد معالمها وسببها غير مزرفها ولكنها .. حقاً لا تدري .

كيف يمكن للإنسان الذي شهد مصرع الحقيقة على منصة العدل أن يتأكد من شئ .. أي شئ !!

كيف يمكنه أن يحدد معالم الأمور ويتبين حقيقة ما يدور في خلده من صواب أو خطأ، وهو أساساً لا يعلم . أين ..ومتى وكيف يتعامل مع الآخرين .

ولهذا لم تكن تدري .. لماذا بكت .

ومع إصرار الرجل الطيب لأن تذهب إلى مكتب المحامي لإستكمال باقي الإجراءات .. وافقت .. وذهبت .

دقائق قليلة .. تغير الحال عن حال .. وأصبحت هيام سالم في واقع أخر تماماً .. واقع ليس فيه الخوف من الغد، ولا مزله الفقر واقع بلا لحظة ضعف .

وإنصرفت من عند المحامي، لتستنشق هواء غير الذي كان يملأ رئتيها، وأن ترى السماء صافية .. والناس أبرياء .. والأصوات كأغاريد الطيور .

وما كادت تعبر الطريق في الإتجاة الأخر .

حتى توقفت فجأة وهي تلتفت إلى الوراء بعد أن سمعت من يناديها :

- هيام ... هيام سالم .

لتجد نفسها وجها لوجه امام جارتها بالإسكندرية حين كانت تعيش مع والدتها.. لاحظت وجود رجلا بجوار السيدة، لكنها تجاهلته وأقتربت منها قائلة :

- تانت فاطمة .. مستحيل هذه المصادفة

- كيف حالك يا هيام .. وأين أنتي

صمتت لحظة قبل ان تجيب :

- أنا في الدنيا يا تانت .

إلتفتت السيدة تجاه الرجل الذي بجوارها .. وقالت مبتسمة:

- أحمد سمير .. أبن أختى الكبرى .. عاد منذ أسبوع من الغربة

مدت هيام يدها لتتلقفها يده .. ثم قالت بلا إكتراث .

- تشرفنا .. وحمداً لله على السلامة .

و .. واصلت المرأة مهمة التعارف قائلة :

- هيام سالم يا أحمد .. إبنه جارتي في الإسكندرية .

كان كفها لايزال في رحاب كفه عندما إستقرت إبتسامة هادئة فوق شفتيه .. ثم قال :

- أهلاً بك يا آنسة هيام .

حاولت أن تتفحص ملامحه وهي تسحب يدها، ولكنها فشلت أمام نظارته الشمسيه التى أخفت مقلتيه وراءها .

وبلا مقدمات إتجهت نحو السيدة متساءله :

- هل لديك أخبار عن أمي .

إضطربت الجارة فجأة .. وهمهمت بكلمات متعلثمة غير واضحة .. ثم أجابت على إستحياء :

- ألم تصلك أنتي أنباؤها .

- لا

- ألم تخبرك عمتك في السويس

زاغ بصرها للحظة قبل أن تجيب :

- لا لم تخبرني .. أقصد أنا لا أقيم عند عمتى .

هنا .. وضح الحرج الشديد على ملامح المرأة، وتلفتت

يميناً ويساراً وكأنها تبحث عن شئ ينقذها من ذلك الموقف .

ثم حاولت ان تنتقل إلى موضوع آخر وهي تنظر إلى أحمد سمير قائلة :

- كم الساعة الأن يا أحمد .

وقبل أن يتفوه بحرف لا حقتها هيام قائلة :

- سألتك هل تعلمين شيئاً عن أمي .

صمتت المرأة برهة قبل أن تقول :

- في الحقيقة أعرف .. ولكن الموضوع طويل والمكان لا يصلح للسرد .

تدخل أحمد بلا مبرر مقترحاً :

- يوجد كازينو قريب يمكننا التحدث فيه .

أجابت هيام بلا تردد :

- نعم نذهب .

وهناك .. كانت الطامة الكبرى .. عندما علمت بما لم يكن في الحسبان .

أخبرتها المرأة بكل شئ .. وعلمت كيف ذاقت أمها مرارة العذاب من زوجها، بعد أن أصبح ثرياً واتسعت تجارته . ودأب على إذلالها بكل الطرق متعللاً بأنها غير صالحة من أجل مواكبة الواقع الجديد .

فأهملها تارة، وقهرها تارة أخرى .

إلى أن تفجر الموقف ذات ليلة ونتج عنه إنفصالها وطردها من حياته، واختفى مع أبنته في مكان غير معلوم ..

فأبلغتها بقصة المعاناة بعد ذلك، وكيف تشردت الأم وهي تصطدم بالأبواب المغلقة كلما لجأت إلى أحد .. إلى أن وصل بها الحال إلى حد التسول .

وتزامنت الجارة مع تسلل دموع هيام فوق وجنتيها حتى كادت تحجب الرؤية عن عينيها .

وللمرة الثانية يتدخل أحمد سمير قائلاً بهدوء :

- نحن لا نملك أقدارنا يا أنسة هيام .. ولكن .. المهم أن نعرف كيف نتعايش ونتعامل معها .

نظرت إليه .. وكانت المرأة الأولى التي تتبين فيها ملامحه بعد أن تخلص من النظارة .. لم تستطع أن تتخلص من إحساس مباغت بأنها تنظر في عينيه إلى أعماق بئر عميق يردد صدى التاريخ، وكأنها جذبت قهراً على كوكب مختلف وأفق ليس له نهاية.

كان أحمد سمير في هدوءه كالبركان المكبوت .. له نظرة يصعب التفرقة بينها وبين النبرة .. شعره بلون بداية الفجر، وملامحه تضم أسارير حنان متجبر، ووقار مجبر ... و ..

كبرياء مسيطر .

لم تتوقع هيام بأن يكون هذا اللقاء هو بداية لرحله طويلة مع أحمد سمير .. تعدد لقاءاتهما .. وتشابكت مشاعرهما وتوائمت أفكارهما .. عرف عنها كل شئْ، لم تخفى عنه أحداث الماضي بكل مآسيها، وعرفت عنه كل شئْ .. أخبرها عن غربته وكيف تململ تحت قبضه الوحدة والإحساس باليتم، وبأن الأموال التى حصل عليها لم تستطع أن تمنحه لحظة دفء واحدة .

وكأنهما في سباق مع الزمن. أراد كلا منهما أن يستقطب ماضي الآخر، كأن كلاهما جزء من ذكريات الثاني .

و.. أستقرت أحاسيس جديدة في وجدان هيام .. لم تعرفها من قبل، وكأنها ولدت من جديد .. شعرت لأول مرة بالحب وكان هو أكثر كفاءة منها لإستيعاب الحدث الجديد الذي طرأ على حياته، أصبح ملازما لها في كل شئْ .. رفيقاً لافكارها وشريكاً لأمالها .. وساكناً لنبضات قلبها .

كان حباً جارفاً كإنصهار البراكين الملتهبة .. لأنه مختلف فالإنسان الذي إعتاد مرارة العذاب في حياته، يجد للحب إحساساً أخر غير الذي لم يذق الألم يوماً .

كان الحب مختلفاً .. كأنه نبت من جوف صراعات الوحدة والخوف كما تنبت الزهور فوق القبور .

هذا الإحساس جعلها تسأله في تردد :

- هل تنوي الرحيل مرة أخرى ؟

تلمس أطراف أصابعها قبل أن يجيب قائلاً :

- في الحقيقة لست أدرى.. وحتى لو رغبت في ذلك فلن أستطع.

قالت على إستحياء :

- وما الذي يضطرك على ذلك .. فأنت في بلدك ..و..

صمتت لحظة قبل ان تسترسل :

- و... وسط الذين يحبونك .

توقف عن السير بجوارها ،وسكن أمامها قائلاً :

- أقسم لك يا هيام بأن من أجلك أنا على إستعداد لأن أضحى بكل شئ في دنياي .. وبعمري أيضاً .

ترقرقت إبتسامة هادئة فوق شفتيها .. ثم قالت :

- وأنا أيضاً يا احمد .. أصبحت لا أستطع البعاد عنك لحظة واحدة .. فأنت بالنسبة لى كل شيء في عالمي .

- تذكرين يا غاليه أنني أخبرتك يوماً بأننا لا نملك أقدارنا .. وها أنا اليوم أجد نفسي مقيداً أمامها..مقهوراً ضد رغبتي.

- أنا لا أفهمك .

أسقط يديه في إستسلام قبل أن يقول :

- أنتي تحملتي من العذاب ما يكفي .. فكيف اساهم أنا في الأمك أيضاً .

لاحقته صادقه :

- أنت تسببت في أيلامي وعذابي .. كيف هذا .. أنت لحظة الأمان الوحيدة في حياتي .. أنت ضمير كل البشرية بالنسبة لي كيف تقول هذا وأنت أغلى الناس .

- أقولها لأنك يا هيام أصبحت أغلى من ذاتي .

نظرت إليه في حيرة قبل أن تقول :

- ارجوك يا أحمد لا تكن غامضاً .. فأنا لا أحتمل تلك الحيرة .. ولا تكن أنت سبباً لذلك .

بادرها سريعاً .. وبصدق :

- لا ياحبيبتي لن أكون .. و ..

وبدأ أحمد يقص عليها أنباء رحلته في الغربة، وكيف تناوبته الليالي مع أحداث غير محتمله وبأنه في حالة ما إذا إتخذ قراراً بالعودة النهائية سيكون الثمن غالياً جداً وسيفقد ثلاثة أرباع ما يملكه من أرصدة .. و ..

أستوقفته قائلة :

- هل يمكنني أن أعرف السبب !

أجاب وكأنه يلقى بجبل ثقيل من فوق صدره دون أن ينظر إليها :

- أنا متزوج من أمرأة هناك .. زواج يغلفه المصالح المتعددة ..

الإقامة والعمل .. وأمور أخرى كثيرة .. وأنا على إستعداد تام للتنازل عن كل شئْ من أجلك ومن أجل حبنا .

قالت بلا تردد :

- لا شيء يهم يا حبيبتي .. فأنا معك .. وأنت تعلم مدى حبى لك وسنبدأ سوياً .. وستنجح هنا في بلدك ..ونحقق كل أحلامنا.. و ..

غابت في لحظة شاردة .. ثم أردفت متساءلة في توجس :

- هل لديك أطفال منها ؟

- لا .. لقد ذكرت لك إنها مجرد مصالح مشتركة .. ولكن القانون هناك يمنحها حق مناصفتي في كل شئْ .. وذلك بخلاف الأمور الأخرى التى ألمحت لك بها .

إبتهجت من أجل ما يخصها ويعينها فقط .. ثم أجابت بمرح:

- أحمد يجب أن ننتهى من هذه المواضيع في أقرب فرصة .. ليتك تفعل ذلك من الأن .

همهم في تردد :

- ولكن .. أقصد كيف ...

قاطعته وهي في نشوتها :

- لا تفكر في شئْ الأن .. أنا وأنت كيان واحد .. أليس كذلك ياعمري .

تأملها بنظرة صامته .. وتسللت إبتسامة هادئة على طرف شفتيه دون أن ينطق بحرف واحد .

وهكذا .. أستقرت الموجه الشاردة على شاطئْ الامان .. وأستطاع الحب أن يشيد لهما قلعة شاهقة يحتميا بداخلها في عالم لا يشاركهما فيها أحد .. أستطاع الحب أن يجسد لهما أحلام الغيب، وأن يفصح عن إمكانياته بأنه فوق المستحيل .. والمستحيل بالنسبة لهما أن يفترقا .. من أجل هذا استسلما لعاطفتهما المتأججة، وأستبقا فوق دروب الأحلام والأمنيات .. يخططان لمستقبلهما، ويحددان معالم سعادتهما بعيداً عن واقعهما الحقيقي .. بعيداً عن كل شئْ .. حتى عن القدر .

٤

كل شيء هادىء .. جلست هيام في غرفتها تتعايش مع لحظة راضية قاعنة، بعد أن أطمئنت علي الرجل القعيد في غرفته .. لا يقلقها سوي أختيار الوقت المناسب لكي تبوح للرجل بكل شيء .. بالرغم من أنها علي يقين بأن رد فعله سيزيدها سعادة وأمان .

لحظات سكون ولكنها تموج بنسمات الحب والهناء .

إنتبهت علي صوت رنين الباب .. ذهبت لتتبين الطارق وأسارير الرضي لازالت مستقرة فوق وجهها .

وما كادت تفعل .. حتي فوجئت بشاب يقف مبتسماً وفي عينية نظرة متساءلة .. و ..

بادرته :

- يبدو أن حضرتك أخطاءت في رقم الشقة .

قال بنبره مترددة :

- أليست هذه شقة الاستاذ ((عبد الحميد))

أو مأت برأسها دون كلمات .

اذدادت نبرته ثقة .. قائلاً :

- هل هو متواجد .. و .. من أنت .

فوجئت به يتقدم بخطوة للداخل في جرأة غير متوقعة .

مما دفعها لان تقول :

- أنا لم أسمح لك بالدخول .. ثم ..

ولكنه قاطعها وهو يواصل خطواته :

- أين أبي .. أين أمي .

صاعقة .. دمار .. زلزال .. دوامة عاتيه إمتصت وجودها من فوق أرض الواقع لتلفظها بعد ذلك في غياهب لا حدود لها .

همست في داخلها والذهول يعبث بكيانها .. مستحيل .

ولكنها الحقيقة التي رسمتها يد القدر .

فكان العائد هو الابن الغائب الذي ظل في الاسر سنوات طويلة فاقداً للذاكرة حتي اعتبروه في عداد الاموات .

وكأن القدر قد أزعجه تسلط الحب وشطحاته .. وأراد أن يقول كلمته ليبدل الحال في نفس اللحظة الامنة .

كان لقاء المعجزة .. المعجزة في كل شيء، من خلال لقاء الابن بوالده الذي إهتز جسده المتراخي بقوة شديدة وتدفق الاصرار الي كل شريان وكل نبضة في عروقه ووجد نفسه يحتضنه جالساً تاره، وواقفاً أخري .. ضاحكاً لحظة وباكياً في الثانية .. تتلاحق الاحرف فوق شفتيه مردداً فقط :

.. أحمدك يارب .. أحمدك يارب .

وهو غير منتبه لكونه قد أسترد عافيته فجأة .. بعد أن ظل قعيداً سنوات طويلة .

ولكنها الاقدار .. أحياناً لا يتصور الانسان إلا الواقع الذي يرغبه .. يسانده بعناد ويحيطه بالمبررات حتي لو كان واقعاً قد نسجته الاحلام الوردية أو الاماني المفقودة .

وبدأ الواقع الجديد ينسج خيوط الاحداث في تلاحق مثير .

الاب يعيش نشوة عودة ولده الوحيد، والفخر يملأ كيانه وكل عالمة المحيط به .. ومحمود العائد من الأسر كان لا يدع فرصة واحدة الا وأثني علي هيام لموقفها الكريم تاجه والديه .

أما هي بدت وكأنها طائر قد شلت أجنحته فجأة فهوي من الارتفاع الشاهق بلا حول ولا قوة .. موجه شارده فاجأتها دوامة عميقة فراحت تلهو بها كما تعبث العاصفة بأوراق الخريف .

أرهقتها الحيرة .. ماذا تفعل ؟

محمود يندفع تجاهها بكل حنين الغائب ولهفة الحرمان من أحاسيس الانتماء .. والاب ينثر مباركته الملحة علي بستان تلك العلاقة بل ويسعي لتحديد اتجاهاتها .

ماذا تفعل .. ؟

وأحمد سمير اختطفته المفاجأة، وبات لا يعرف في أي اتجاه يسير .. المقابل صعب ومرير .. والقرار ليس قراره .

وبدأت ملامح غربة الوجدان تسطع في افقها عند أول لقاء.

حيث بادرها بترقب قائلا :

- أنا لا أكاد أصدق ما حدث .

أطلقت زفره من صدرها دون أن تعلق علي كلماته .. فأستطرد:

- ألم أقل لك إننا لا نملك أقدارنا .

نظرت إليه بشرود صامت .

قال وكأنه يحثها علي الحديث :

- ما الذي تتوقعي حدوثه .

همست وكأنها تحدث نفسها :

- لم أعد أتوقع شيئاً ..

- أراك شاحبة يا حبيبتي .

تنهدت من جديد .. وأجابت :

- النوم رحل عني وتفكيري مشتت .. و ..

التفتت تنظر الي لا شيء .. ثم أردفت :

- لست أدري ما الذنب الذي أقترفته حتى يلاحقني العذاب طوال رحلة عمري .

عاد يلمح عن توقعاتها مرة أخري متساءلا :

- بماذا تفكرين ؟

أجابت بلا تردد :

- لا أعرف .. لم أعد أعرف شيئاً .. ولا أفكر في شيء .. أشعر وكأني لا حق لي في أي شيء .

- هيام لا تزيدي الامور غموضاً بالنسبة لي .

إبتسمت ساخرة أو مستسلمه .. ثم قالت:

- أراك أنت أكثر حيرة مني .

أجاب بتوجس :

- أنت حائرة أذن !!

حاولت أن تقاطعه ولكنة أردف مسترسلا :

- أنا لا أنكر قسوة الموقف الذي وضعتك فيه الظروف .. ولكن .. هناك أمر لم يكن في حسباني .. وهو أني بحق أحببتك .. وربما ظننت أيضا إنك تبادليني نفس الاحساس .

- أحمد .. أرجوك .

- أرجوك أنتي لا تقاطعيني .. فأنا لا أعرف حتي هذه اللحظة ما الذي يخبئه لنا القدر .. ولكن الحياة علمتني بعض من عندها .. علمتني أن أتوقع من الليالي أي شيء .. وأن الاحساس بالقوة من المستحيل أن يكونٍ معنوي .. القوة مادية .. قوة حقيقية تتخذ لنفسها أشكالا متعددة .. مال .. سلطان .. نفوذ .. كلها دروع متأهبة لمفاجآت القدر .. و ..

قالت والدمع يبرق في عينيها :

- والحب يا أحمد

- الحب كالطفل البريء .. في حاجة للرعاية .. للحماية .. للمساندة .

الحب وحده يا هيام لا يكفي .. وها أنا وأنت الان خير مثال لذلك .

أجابت بإصرار :

- لا تصادر قناعتي أرجوك .. فأنا لازلت مصره بأن الحب الحقيقي هو أقوي من أية ظروف .. الحب فوق المستحيل .. يمكننا من خلاله أن نحقق كل طموحاتنا، ونقهر كافة العوائق.

إبتسم في يأس :

- أنا شديد الاعجاب بمبادئك .. وأتمني أن تكون رؤيتك للحياة أصدق من رؤيتي لها .. فقد تكون الظروف التي مررت أنا بها هي التي جعلت مني دائم الترقب .. أو الخوف من الغد.

تناولت كفه برفق .. وقالت بحنو :

- سأثبت لك أنني علي حق .. المهم عندي أن تعاهدني علي مساندتك لي .. الا تجعلني أشعر بأنني وحيدة .. أريدك بجانبي .. وستري ما يمكن أن يفعله الحب .

لم يعلق .. وصمت برهة .. فلاحقته قائلة :

- هل تعاهدني ؟
- أعاهدك .

و.. قبل أن تتفوه بكلمة واحدة .. استدار منصرفاً، وكأنه

يخفي لحظة ضعف إقتحمت مقلتيه .. أو هارباً من إحساس صارخ راح يهز كيانه بعنف .

وكأنها هي أيضاً أدركت ما أحيط به .. فتركته ينصرف بهدوء.

واستدارت في الاتجاه الاخر .. تخطوا بخطي ثابتة .. فهي تعرف الي أين تتجه .

بل تخيلت إنها تعرف الي أين تتجه .. هكذا يكون الانسان الحائر .. كل منا يتخيل ما يريده .. ما يتمناه .. ولكن .. من منا لم تقهره ذرات الغيب التي تتساقط من لهيب قرص الشمس .. مجرد ذرات، تحمل في جوفها شعاع يوم جديد .

جميعاً نتوقع من الغد .. ما نتخيله .. ولكن أيضاً .. للغد كلمة أخري لا يتوقعها فجره الجديد، ولا شمسه الحارقة .. ولا غروبه الذليل .. ولا ليلة الطويل .. الغد نفسه في يد القدر .

والقدر ساقها الي مواجهة محمود.

وقفت أمامه بمجرد دخولها الي وسط الردهة بالمنزل مترددة بعد عودتها .. ثم أستجمعت شجاعتها بكل مشاعر حبها الي أحمد سمير.

و .. قالت علي استحياء المتمكن :

- أستاذ محمود .. أنا فكرت كثيراً قبل أن اتحدث معك في موضوع يكاد يخنق ضميري قبل أن يلهو بمشاعري

تأملها في إنصات مصحوب بالترقب .

بينما أردفت هي قائلة :

- أنت بالنسبة لي .. بطلا قبل أن تكون رجلاً .. قدوة قبل أن تكون رغبة .. عملاقاً قبل أن تكون إبن أبي الذي وهبتني إياه الحياة .. أنت بالنسبة لي رمزاً للإنتماء وضمير الولاء.

أنت بالنسبة لي .. ولغيري مانح حريتي .. وقاتل مذلتي .. كل ذرة رمال إرتوت بعرقك ودماءك أنت والاخرين أكاد أسمعها وهي تشدوا بحبك .. وبتضحيتك.

أكاد أشعر بها وهي تعلن لكل العالم أن كل حبة منها تفخر بك .. كما تفخر مصر بكم جميعاً يا أبطال حرب أكتوبر .. لا .. يا أبطال كرامة أكتوبر اكاد أن ..

ولكنه يقاطعها بلطف شديد قائلاً :

- هيام .. ماذا بك !!

وكأنه يخفي ما أدركه، ولكنه يأمل أن تكون أكثر وضوحاً .

ولكن فشلت محاولته، عندما لاحظ بريق الدمع في عينيها وقد تسللت قطره من مدامعها وانسابت فوق وجنتيها صامتة .

مما دفعه لان يبادرها قائلاً :

- أستحلفك بكل ما قلتيه أن تخبريني ما هو مقصدك .

إلتفتت إليه في استسلام هادىء.

قائلة :

- إسمح لي أن اناديك بمحمود بلا ألقاب .. فأنت بالنسبة لي إمتداد لكل شيء .. لعائلتي الجديدة .. ولاستردادي للأمال المفقودة .. من أجل هذا لا يسعني غير أن أبوح لك بالحقيقة التي سيطرت علي كل حياتي .

ترقرقت علي شفتيه إبتسامة الامل وهو يقول :

- كنت أتمنى أن أبوح بتلك الحقيقة قبلك .. ولكن الخوف من رد فعلك جعلني أتماسك .. هكذا علمتني الحياة .. علمتني أن كل ما فيها غير متوقع .

شعرت بالاصرار يملأ كيانها قبل أن تقول :

- في الحقيقة يا محمود .. أنا جئت إليك اليوم لكي أطلعك علي أمر لا تدريه .

و .. مرة أخري يقاطعها .. وبشغف رائع وصادق .. قال :

- أكاد أعرف ما الذي تريدين ان تبوحي به لي .. ولكن أرجوك دعيني أحظي بهذا الفخر قبلك .

وقبل أن تتفوه بكلمة .. لاحقها قائلاً :

- أنا أحبك يا هيام .

وكأنها تحولت فجأة الي تمثال ثلجي .. أجابت بلا تردد :

- ولكني لا احبك .. و ..

وتنبهت لصفاقتها فعاودت قائلة :

- أقصد .. أنت بالنسبة لي أكثر من أخ .. ولكني لا أملك فرض سيطرتي علي قلبي .. أنا يا محمود أحب أنسان آخر .. وهو يحبني .. وقد تعاهدنا علي مواصلة مسيرة حياتنا معاً .

مضت لحظات صمت مريره .. بل دقائق عصيبة .

وطفرت المفاجأة القدرية .. عندما إنتبها هما الاثنان علي صوت الاب الذي وضح إنه قد أستمع الي حوارهما وهو جالس في الطرف الاخر من الردهة .

وقال متوجهاً بحديثة الي ولده العائد قائلاً :

- أتركنا بمفردنا يا ولدي .. أرجوك .

وفي هدوء يقترب من الذهول، تحرك محمود مختفياً داخل أقرب غرفة في طريقة .. بينما إستدار الاب نحو هيام وأستطرد بعد نظرة ثاقبة الي عينيها قائلا :

- إن لم تتصرفي هكذا .. لكنت صدمت فيك يا أبنتي .. فأنا.

عهدي بك إنك نقية كنقاء ماء السلسبيل .. وطاهرة كطهر الجنين في رحم أمه .. وصادقة كصدق الأولياء .. فأنا يا إبنتي فخور بك بالرغم من أنك مزقت بمبادئك شرايين قلب ابني الوحيد . .

.. و ..

أسرعت إليه وإرتمت في صدره بكل صدق قائلة :

- سامحني يا أبي .. فأنا لا أستطيع خداعه ..

أجاب مبتسماً في كبرياء قائلا :

- أنت في النهاية ابنتي .. وهو أيضاً ابني الوحيد .

و.. قبل أن تجيب .. ظهر محمود مرة أخري بكل ثبات وقد إرتسمت علي وجهه أسمي معاني الرضي .. ثم قال :

- لماذا يا هيام .. لماذا لم تخبريني بأن في حياتك حب كبير . مثل هذا .. لماذا لم تمنحيني فرصة معاونتك .. بل فرص مشاركتك سعادتك .. و ..

بكل الحب .. همس الاب كأنه يهمس الي نفسه :

- وأنا أيضاً .. لماذا لم تبوحي لي بحقيقة مشاعرك بعد عودة محمود .. لقد تصورت للحظة يا أبنتي إنك تحبينه كما أحببك .

تحسس شعرها برفق .. ثم أستطرد :

- لا تخشي شيئاً يا أبنتي .. ففي السابق كان لك أب فقط .. أما اليوم فأصبح لك أب .. وأخ أيضاً .

وقبل أن يسترسل قاطعه محمود قائلاً :

- لا يا والدي الحبيب .. فأنا لست أخاً لها فقط، بل درعاً

يقيها من كل سوء .. لو ..

ثم نظر إليها بكل حب متساءلا :

- إذا سمحت أختي بذلك .

تراجعت بخطوة الي الوراء والدموع تخفي أسارير وجهها .. ثم قالت :

- أنا لا أطمع في أكثر من أن تغفرا لي .

وبلا تردد أجاب الاب :

- أغفر لك لو ظللت علي اتصال بنا .. وانا سوف اترك لك نصيباً من المال لكي تكوني .. و ..

ولكنها تقاطعه بحده غير متوقعة :

- لا يا أبي .. ارجوك لا تفسد العلاقة بيني وبينكما .. فأنا اتخذت قراري .. وأمنيتي الوحيدة ان تظلا علي عهدي بكما .. وألا تختلف نظرتكما لي .

وأحب أن أطمئنكما أن أحمد قد ..

ومرة أخري يقاطعها محمود دون مقدمات متسائلا :

- أسمة أحمد .

اجابت بلا تردد .. وبفرحة :

- نعم .. أسمه احمد سمير .. لقد أحببته لدرجة إنني أصبحت لا أقوي أن أتخيله لحظة دون أن يكون معي .

وهنا .. اقترب منها الاب بكل حنو هامساً :

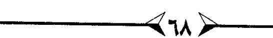
- إسمعي يا هيام .. إذا كنتي ترفضي مالي فأرجوك لا تصدين حناني .. من أجل هذا أطالبك بأن تعاهديني بألا تختفين من حياتنا .

تراجعت بهدوء نحو الباب الخارجي، وهي تنظر إليهما بعينان ملؤها الدموع .. ورددت بنبره كالحشرجة :

- لن أنساكما .. بل لن أنساكم جميعاً .. أنت يا أبي وأنت يا محمود .. و ..

لن أنسي أمي الراحلة .. وأمي الغائبة .

وإنصرفت مسرعة الي خارج المكان .. وهي لا تدري مرة أخري الي أين سوف يكون مصيرها.



٥

السماء ملبدة بالغيوم، وصدي الرعد يخترق رخات المطر بلا هواده .. وهيام تسرع من خطواتها في محاولة للإحتماء أسفل أي شيء من شده الامطار .. تارة تحاول إيقاف سيارة أجرة، وأخري تنتقل الي الجهة المقابلة لعلها تفلح للوصول الي غايتها .. بدت وكأنها تهرب من شيء آخر غير الرعد والهطول الجارف .. تهرب من إنقباضه عنيدة أحكمت قيودها بين أضلعها، لا تعرف لها سبباً .. فهي في طريقها لأحمد سمير .. وبالرغم من ذلك كانت غير متفائلة، وكأنها شعرت فجأة بإحساس الذنب الذي أقترفته تجاه الاب وولده .. شعور غريب .. يتهمها بنكران الجميل .. بالأنانية .. بعدم الوفاء .

ولكنه الحب .. ذلك الاحساس المسالم، فرض سطوته بكل شراسه علي مشاعرها وانساها ظلم وظلمه الليالي الماضية. الحب الذي إنطلق من أعماقها متوعداً أي محاولة تمتد لتحول بينها وبين حبيبها .. حتي لو بترت الأيدي التي طالما إمتدت لمعونتها .

الحب .. ذلك الاحساس المرهف .. أستطاع بكل جبروته أن يقلب مقلتيها ويجعلها لا تنظر إلا في داخلها .. فأوهمها بأنها أقوي من الايام .. و ..

مفارقات القدر .

شعرت وكأن مستها صاعقة .

ولكنها ليست صاعقة زمهرير شتاء قارص أو عاصفة عاتيه أو حتي إعصار جارف .

كانت صاعقة مختلفة .. دمرت في داخلها كل تراث إنسانيتها .. صعق وجدانها الحائر، أحست في لحظة وكأنها كيان هش .. بلا جذور .. بلا مقومات أو ذكريات .. لحظة .. فقدت في خلالها كل شيء وأي شيء .. لحظة توقفت فيها نبضات البشرية وصمتت فيها كل صرخات الألم والأحساس بالظلم .

هي نفسها لم تدرك أن ما أنتابها كان إيذانا بنبته شيطانية تعلن عن وجودها، تصرخ في أعماقها بأن لا شيءٍ حقيقي .. الوهم فقط هو الوجود .. والوجود أيضاً غير حقيقياً .. لحظة .. كان صداها اقوي من كل صرخات الزمن، فاجأتها كما فاجئت من قبلها .. لتعلن بكل وضوح، .. بأن ضميرها قد مات !!

مات ضميرها وهي لا تدري .. لم تنتبه في تلك الاونة بأن وجدانها قد مات أيضاً.

فالانسان عندما يموت ضميره يصبح لا فرق عنده بين الوجود أو العدم .. الشروق او الغروب .. السعادة أو الشقاء .. لا فرق بالنسبة له .. لانه في هذه الحالة لا يملك غير التوقف عند نفسه.



و .. هيام مات ضميرها .. في لحظة .

فقررت أن تموت بعدها كل لحظات الزمن الأصيل .

قررت تميت مشاعر الوجدان، وأن تشعل نيران الحقد لتلقي فيها بكل قلوب البشر.

كل هذا من أجل فجيعتها .. بل مأساتها .

لقد رحل أحمد سمير .. رحل دون مقدمات أو مبررات.. ترك لها رسالة مقتضبة يبلغها فيها بأنه رحل من أجلها .. من أجل حبها العظيم .. وسعادتها وهناؤها .

هكذا أراد أن يقول ... وهكذا ايضاً قالت لنفسها .

خائن .. بلا ضمير .

كيف يمكن للحب أن يتحول فجأة الي مخالب عطشى لجراح القلوب .. كيف يمكن للبراءة ان تتحول في لحظة الي أشكال شيطانية هولاميه عابثة وتدمر في طريقها كل شيء .

هيام، الفتاة الرقيقة الحالمة .. مرة أخري تجد نفسها في مواجهة مع الدنيا وهي وحيدة .. شريدة .

مرة أخري تتلقى في أسي دماء الحسرة وهي تنفجر من كل أوردتها منتحرة .. و ..

مستسلمة .

أعياها الارهاق .. جلست علي أحد الارائك المطلة الي النيل

.. راقبته في صمت وكانها تبثه شكواها من ظلم الاقدار لها .. كانت تغوص ببصرها وكأنها تحثه علي التحاور معها .. قد يكون عنده ما يطفيء لظي تساؤلاتها الحائرة .

يا إلهي .. كيف امكنه ان يرحل بعد كل هذا الحب .. تراه كان مخادعاً أم مخدوعاً .. ظالماً أم مظلوماً .. عاشقاً أم مقهوراً .

كيف أمكنه أن يرحل .. يتركني بعد أن أسلمت له قلبي ووجداني ومشاعري وكل حواسي وأنا راضية .. كيف يتركني بعد أن جفت مادمعي بعد طول بكاء .. وسكنت مواجعي بعد طول شقاء يا إلهي .. كيف أتحمل كل هذا العذاب .

نحن نرتبط بالآخرين بكل إرادتنا .. ولكننا للأسف .. نفقدهم دون إختيار منا أو قرار .

فقدت حنان أبي قبل أن أختزن منه شيئاً في أعماقي .. والتهم الموت توأمي دون أن يمنحني فرصة لان أكون أنا البديل .. وأحمد .. حتي أنت رحلت بكل انانية غير مبالي .. رحلت تاركاً وراءك عذابات الحسرة والندم في قلبي .

و.. إنتبهت لوجود طفلة صغيرة تقف علي مقربة منها تنظر إليها وكأنها تراقبها .

نهضت متجهة نحوها .. ثم ربتت علي كتفها برفق وهي تحاول ان تستقطب إبتسامة هادئة فوق شفتيها .. ثم استدارت في

الاتجاة الاخر .. وكأنها قد اتخذت قراراً من خلال الطفلة الصغيرة بأنها سوف تبدأ الرحلة من جديد .

ولكن .. بطريقتها .

كان أشد ما يقلقها هو كيفية مواجهة كل من الاب والابن من جديد .. ماذا ستقول لهما .. وكيف ستفسر لهما موقفها وموقف أحمد سمير منها .. بل .. كيف ستفرض نفسها مرة أخري علي حياتهما .

.. هل تعود لتعرض موافقتها علي الزواج من محمود

وماذا لو رفض !!

.. هل تذكر الحقيقة للأب لعله يقدر ظروفها .

ولكنها خذلته .. فتراه يخذلها !!

طريق العودة طويلاً .. ولكنها كانت عائدة بإصرار .

و .. هناك تلاشت كل مخاوفها امام لحظة أستقبالها الرائعة كانت سعادة الاب بها تفوق كل توقعاتها .. ونظرة الحب والأمل التي كانت تطل من مقلتي محمود في أتجاهها حاولت أن تشرح لهما حقيقة ما حدث ولكن كلاهما رفض بإصرار وكأن شيئاً لم يكن .. بل حاول محمود أن يبتعد بها عن ذلك الموقف المرير .. وبادرها ضاحكاً :

- والان يا أميرتي الرائعة .. جاء دورك لاستلام المسئولية .

إبتسمت في رضي دون أت تعلق .. بينما أتجه نحو دواء والده وراح يردد قائلاً :

- هذا الدواء صباحاً ومساءاً .. وهذا بعد الغذاء فقط .

وتلك النقط مرة واحدة .. و ..

قاطعته ضاحكة .

- وانت يا محمود لن تفعل شيئاً .

أجاب بسعادة :

- سأتولي انا المشتروات الخارجية .. ولا مانع من مساعدتك أحياناً في المطبخ .

وهنا تدخل الاب موجهاً كلماته لها قائلاً :

- لا .. أرجوك .. إذا دخل محمود المطبخ معني ذلك أنني سأصوم باقي عمري .

قالت والسعادة تحمل نبرة صوتها :

- لك كل الحق يا أبي .. ولكن نحن مضطرين لموافقته .. كان الله في عوننا .

بدا محمود مزهوا ومنتشياً وهو يقول :

- عقاباً لكما سادعوكما اليوم علي العشاء بالخارج .. ولن أدخل المطبخ اليوم .

تقدم الاب نحو هيام ثم وضع كفه فوق وجنتيها برفق وقال هامساً بحنان :

- أحمد الله أنني لم أقم بإلغاء التوكيل الذي معك، وإلا كنت سأضطر لتجديده .. و ..

التفت تجاه محمود ثم أردف صادقاً :

- من يدري .. لعل أمنيتي تتحقق قريباً .

ترقرقت إبتسامة هادئة علي شفتي هيام، بينما إكتفي محمود بنظره شارده نحوها.

وأرتدت الليالي ثوباً تفوح منه رائحة البهجة والسعادة .. ومرة ثانية يتجدد الأمل في قلب محمود، كان لا يدع فرصة تفوته دون أن يحاول التعبير لها عن مشاعره الصادقة خاصة وانها باتت أكثر إستجابة عن السابق فهي لم يعد لديها أحد تطويه في قلبها .. بعد أن رحل حبها .. أو .. مات .

كما أنها أصرت أن تقص عليه كل شيء بصدق شديد حتي إنها لم تجد حرجاً في أن تخبره بموقف أحمد الذي لولا تخاذله ما كانت عادت .

ولهذا لم يجد محمود مفراً من أن يبادلها نفس الوضوح وأستغل إنفرداهما سوياً .. وبادرها قائلاً :

- لست ادري إن كان الوقت مناسباً يا هيام أم لا، لكي أجدد طلبي إليك .

أخذتها المفاجأة برهة .. ثم أجابت :

ما أروعك يا محمود .. حقاً أنت نموذج للرجل الشريف الصادق .. و ..

قاطعها مازحاً :

- كفي .. كفي .. ما كل هذا الاطراء الذي لا أستحقه .

واصلت .. قائلة :

- أنت حقاً كريم الخلق .. شهم وعزيز النفس .. لم أكن اتصور أن مشاعرك تظل نحوي كما هي بعد كل الاحداث السابقة والتي كنت أنا سبباً فيها بحماقتي.

لاحقها بلهفة :

- لا تقولي هذا يا هيام .. فأنا مشاعري نحوك لم ولن تتبدل مهما حدث .. و ..

كانت المرة الاولي التي تتلامس فيها أياديهما وظلا متماسكان لمدة ثوان قليلة وكأنهما في حوار علي عهد جديد بينهما.

بينما سحبت هي كفها برفق قبل أن تقول :

- لقد تاخرنا علي أبي .. يجب أن نعود الان فربما يكون في حاجة الينا .

- أذهبي أنت يا عزيزتي .. وأنا سوف الحق بك فيما بعد .

إنصرفت عائدة الي المنزل .. بينما إتخذ محمود طريقاً آخر كان قد قرر الذهاب إليه من أجل أن يكلل سعادته بتحقيق الواقع .

حيث قرر أن يشتري لها شبكة الخطوبة حتي يصبغ علي علاقتهما الصبغة الرسمية .



كانت سعادته تفوق الحد وهو يختار أحلي ما لدي الجواهرجي دون تردد .

استقل سياة أجرة لتعود به الي المنزل وهو شارد الذهن يفكر في تقبلها للمفاجأة .. فتارة يراها وهي تقفز فرحاً أمام المرآة وهي ترتدي مجوهراته .. وتارة أخري يراها تلقي بنفسها في أحضانه وتمطره بقبلات الحب والاشواق .. وبالرغم من أن الوقت لم يمضي أكثر من ساعتين إلا أنه كان يشعر بأنها قد أغتربت عنه أشهر طويلة، إحساسه بالشوق دفعه لان يحث السائق علي أن يسرع .. كان يثرثر معه وكأنه يحدث نفسه وهو يشير الي دفء الطقس وجمال الطبيعة .. ورقة النسمات ورائحة عطر الزهور والشفاه التي تحمل أجمل الابتسامات وان الغد دائماً .. مشرق .. و ..

والسائق ينصت في صمت .. الي أن أوصله للمكان المحدد وهو ينظر إليه بشفقة وكأنه قد ظنه مجنوناً او معتوهاً.

بينما لم يبال محمود من نظرة الرجل .. وأسرع مندلفاً الي داخل المنزل .. وفتح باب الشقة متلهفاً .. و ..

وما كاد يخطو خطوتين الي الداخل حتي توقف فجأة امام ظهور هيام وهي منصرفة من داخل غرفة الاب والذهول يفترش ملامحها .

لحظة رهيبة .. شملت نظرتها .. وما ان بادرها متساءلا :



- ماذا بك يا هيام .

أنفجرت صارخة وكأنها اصيبت بطعنة قوية في صدرها، ورددت في هوس :

- أبي مات .. مات أبي .. محمود .. بابا مات.

و .. إهتزت بشدة أثر إصطدامه بها وهو يسرع ملتاعاً نحو أبية الراقد بلا حراك .. وراح يتلمس جسدة الساكن .. وهو يلهث قائلاً :

- أبي .. اجبني يا أبي .. و ..

سقطت نظرته علي مجموعة الادوية التي بجواره .. لفت نظره زجاجة القطرة الخاصة بقلب أبيه وكأنها تناديه، تناولها والفزع يملأ مقلتيه .. ثم التفت تجاه هيام قالاً بصرخة :

- ماذا حدث .. الزجاجة تكاد تكون فارغة .. ماذا فعلتي ؟

أجابت والرعشة تسيطر علي شفتيها :

- لم أفعل شيئاً .. طلب الدواء عندما فاجأته النوبة .. وأعطيته ثلاثون نقطة من هذه الزجاجة .. و ..

إنقض عليها كالنمر الهائج وهو يصرخ بنبرات باكية :

- قتلتيه يا مجرمة .. قتلتيه يا سفاحة

حاولت ان تتخلص من قبضة يديه التي كادت تكسر كتفيها .. وأخذت تردد بلوعة:

- لم أقتله يا محمود .. كيف أقتله وهو ..

ولكنها صمتت مضطرة عندما هوي بكفه فوق وجها فأطاحها ساقطة علي الارض قائلاً بثورة :

- يحتاج لثلاث نقاط وتعطيه ثلاثون يا قاتلة .

ثم أنحني إليها ورفعها بقوة الي أعلي ليلقي بها كالكرة علي الجدار لتسقط مرة ثانية وقد شلت حركتها تماماً .

واتجه مرة أخري الي أبيه يهزه بشيء من العنف وكأنه يوقظه من نعاسه العميق ليسأله عما حدث .. و ..

لكن الرجل مات .. أو قتل .

وكالمهوس تراجع نحوها وراح يركلها بقسوة بقدميه والدماء تتناثر من فكيها .

أسرع للتليفون وأمسك به بيد مرتعشة .. وأخذ يثرثر بعبارات مشتته محدثاً محامي أبيه :

.. هيام قتلت أبي .. القاتلة .. الفاجرة .

و.. تلاحقت الاحداث سريعاً بعد حضور المحامي، واذدحمت الشقة برجال الشرطة .. وتماطرت الاسئلة حول هيام .. وكذلك اللعنات .. وسقطت مغشياً عليها .. ولم تفق إلا وهي في طريقها الي النيابة بعد عدة أيام .

جلست أمام المحقق وهالة من السواد تحيط بعينيها، ودماء

وجهها انسحبت تاركة إصفراراً شديداً فوق بشرتها .

إنتبهت علي صوت وكيل النيابة قائلاً بهدوء :

- إسمعي يا هيام .. الانكار لن يفيدك .. ولكن إذا اخبرتيني بالحقيقة قد تكون مبرراتك مقنعة .. ولعلها تشفع لك في المحكمة .

همهمت بأعياء شديد :

- أقسم لك أني لم أقتله .. كيف أقتله وهو الذي .. ولكنه قاطعها وهو لايزال محتفظاً بهدوءه:

- بطريقتك هذه لن نتفق .. وكما ذكرت لك الانكار لن يفيدك .. و ..

تركها لحظة أنشغل قليلاً عنها وهو يتصفح بعض الاوراق .. ثم أردف :

- كل الملابسات ضدك .. وعليك أن تدركي جيداً إن في النهاية ستقولين الحقيقة .. فأخبريني بها الان أفضل لك .. ولنا أيضاً .

نظرت إليه بتوسل وهي تقول :

- أرجوك أعطني فرصة ادافع عن نفسي .. أومأ برأسه موافقاً .. وأستطردت بصعوبة :

- هذا الرجل هو أبي الذي لم ينجبني .. فكيف أقتله .. لقد

منحني هو وزوجته الراحلة وكل الأمان والحب .. فكيف أقتله .. أنا التي سهرت عليه ليالي طويلة وكنت أقوم بتمريضه .. كنت بجواره وهو مشلولاً وقعيداً وأقوم بخدمته راضية.. و ..

ولكنه قاطعها وقد سبقته نظرة حادة :

- هذا قبل أن يمنحك توكيلاً بكل أمواله .

تراجعت برأسها قليلاً كما لو كانت قد تذكرت فجأة هذا الأمر .. ثم رددت متلعثمة:

- هو الذي قرر هذا .. ولكن عندما عاد إبنه محمود .. قد ..

- قد ماذا ؟

صمتت لحظة حاولت فيها إبتلاع توترها .. ثم أجابت :

- المفروض أن الأموال تعود الي محمود .. إبنه .

نهض المحقق بهدوء .. ثم قال بإتزان :

- المفروض .. ولكن هذا لم يحدث .

- لم أكن أدري .. فهو كان يرغب في أن يزوجني من محمود .. ولكن ..

ومرة أخري يقاطعها :

- ولكن ماذا ؟

لم تجد ما تقوله .. وضاعت الاحرف فوق شفتيها .. مما دفعه لان يعاود تساؤله بإلحاح هذه المرة :

- ولكن ماذا يا هيام ..

- لم يحدث ..

- لماذا .. ؟

- لا أدري .

عاد الي وراء مكتبه ثم جلس وهو يقول مؤكداً :

- لا .. أنتي تدري جيداً لماذا لم يحدث .

رمقته بنظرة مرهقة .. وصمتت .

لاحقها قبل أن تفيق من شرودها :

- أخبرك أنا لماذا لم يحدث .. التحريات تقول إنك علي علاقة برجل أسمه أحمد سمير .

أشارت برأسها بالموافقة في إستسلام .. ثم .. واصل هو قائلاً:

- وهذه العلاقة وقفت حائلاً بينك وبين تحقيق رغبة القتيل

إنسابت الدموع بغزارة فجأة .. ورددت باكيه :

- أقسم لك من جديد أنا لم أقتله .. الزجاجة مكتوب عليها ثلاث نقاط بالارقام ظننتها ثلاثون .. وهذا ما حدث بالفعل.

تبدلت نبرته في تلك الاونة وقال بحزم :

- أنا لم أسألك عن ظنك .. ولكني أسألك عن علاقتك بأحمد سمير .. و ..

وضرب بكفه علي المكتب أمامه مما جعلها تنتفض هلعاً ..

ثم أردف قائلاً :

- ألم تتفقا علي قتل الرجل من أجل أن ترثي أمواله .. ثم تستمتعا بها فيما بعد .. ألم تتفقا علي الزواج وكان ذلك هو المقابل

صاحت بحرقة :

- لا .. أحمد ليس طرفاً في هذا .. وهمست علي استحياء مستطردة :

- هو رحل وتركني .. تركني وعاد الي غربته .. و ..

راحت في غيبوبة بكاء وهي تخفي وجهها بكلتا يديها .

أذدادت حدة لهجته وهو يقول :

- لا زلت تكذبين ..

وبلا إرادة صرخت وهي تحاول النهوض ولكن قواها لم تسعفها فهوت علي مقعدها مرددة :

- أنا لا اكذب .. صدقني أنا أكثر حزناً علي عمي أكثر من محمود نفسه

لم يعرها إهتمامه .. وضغط علي الجرس ليدخل الحرس الخاص بها وبرفقته آخر وقال آمراً :

- خذها .. وأدخل الاخر .

إقترب منها الحارس وأنهضها برفق، بينما أختفي الحارس

الثاني لبرهة ثم عاد .

وما كادت تستدير حتي أطلقت صرخة من أعماقها كما لو كان قلبها قد أقتلع فجأة من بين أضلعها .

وجهاً لوجه أمام أحمد سمير .

.. مستحيل .. أنت ..

.. أنت لم ترحل .

.. أحمد .. أنا متهمة بالقتل .

إنقذني يا أحمد .. أنت لم تذهب .. كيف .

وبصعوبة بالغة أستطاع الحارس أن يعيد توازنها وهي في طريقها للسقوط، ودفعها الي خارج المكتب .. بينما تقدم احمد سمير برفقة الحارس الاخر .. و ..

جلس أمام وكيل النيابة بعدما أمر مرافقة بالانصراف .. ثم التفت إليه وقال بترقب :

- الان .. أريد أن أعرف الحقيقة كاملة منك يا أستاذ أحمد.

وراحت الدقائق تسحب الساعات .. وأحمد سمير يسرد كل شيء عن تفاصيل علاقته بهيام .. وبأنه بالفعل قرر الرحيل ولكنه تراجع ثانية لانه بات لا يريد العودة .. وفي نفس الوقت لا يريد أن يصبح عائقاً أمام سعادة هيام .. و ..

ولم يتوقف إلا علي صوت وكيل النيابة وهو يملي قراره لاحد

معاونيه قائلاً :

- قررنا إستمرار حبس المتهمة هيام سالم لمدة خمسة وأربعون يوماً لحين أستكمال التحقيق وتحديد جلسة لمحاكمتها .

ثم .. التفت لأحمد سمير .. وقال :

- لا تبرح عنوانك لحين استدعاؤك في أي وقت :

وامر بإنصرافه .

محكمة ...

أطلقها الحاجب بصيحة مدوية اهتزت لها القاعة .

شعرت وكأن أيادي البشرية قد قبضت بإحكام على قلبها وراحت تعتصره .. وكأن الارض فقدت الجاذبية وبات كل شئ في الكون بلا توازن .. الليل يحترق والنهار يختنق والأعين زائغة والألسنة مشلولة .. أحست بإنفجار عقلها فتشتت أفكارها في غياهب اللاوعي .. لحظة. طمست فيها كل ماضيها وحاضرها .. و ..

أي أمل لمستقبلها .

كانت كلمات القاضي وهو يردد حيثيات الحكم تصل إلى أذنيها وكأن أحرفها أعاصير مدمرة، وأمواج هائجة ورعد في قتال مع البرق.

وبالرغم من أن محمود قد تقدم بتنازله عن إتهامها، وبالرغم من أن أحمد سمير قد أقسم لها بأنه لن يفارقها قط في محنتها، وبأنه قد قرر البقاء بجوارها إلى أن تعبر تلك الأزمة الطارئة.

بالرغم من كل هذا .. إلا أن صوت القاضي كان أقوى من إحساسها بذاتها وكأنها بلا كيان وبلا وجود .

((حكمت المحكمة حضورياً على المتهمة هيام سالم بثلاث سنوات سجن بتهمة القتل الخطأ.))

هكذا.. من خلال كلمات قليلة تحولت هيام إلى مجرد رقم في الزنزانة .. حتى كادت أن تنسى أسمها .

وتمضي الأحداث .. ولا تمضي الأيام .

لتدرك هيام وهي تنحشر وسط الأرقام الأخرى .. أنها لم تكسب معلومة واحدة طوال حياتها .. أدركت وهي وسط السجينات بأنها لم تعش من قبل أو كأنها هبطت فجأة من كوكب آخر .

لكل رقم قصة .. ووراء كل قصة حقيقه مريرة .. وواقع اكثر مرارة .

وكان القدر كريماً معها وكأنه أراد أن يزيدها معرفة بحقيقة الواقع الذي تعيش فيه وأن يكشف لها كيف كانت تحيا في رحاب الوهم .

فساقتها الظروف لأن تجاور إحدى السجينات التى دربتها الليالي على كل شئ .. فكانت تلميذه نجيبه للفسق والإنحلال، وكأنها إنصهرت تماماً في بوتقه الشرور والفجور والأحقاد وسموم الكراهية، لتظهر من جديد في كيان لا توازن و لامشاعر له، في شكل امرأة تدعى ((سمية الحسيني)) كانت بيضاء البشرة في لون المحيطات الثلجية .. حادة النظرات كأنها طلقات ملتهبة .

شعرها أسود قاتم كغموض الليل المظلم وهو يتهادى فوق سطح مياه راكدة .

وكأنها أستثمرت كل مقوماتها وثرواتها وأفكارها في ذلك القوام المشوق والأنوثة الطاغية .

حاولت هيام مراراً أن تتجنب التحاور معها، ولكنها في كل مرة تبوء بالفشل، وذلك من إصرار سمية لملاحقتها وملازمتها بشكل دائم. إلى أن أحكمت سيطرتها عليها وأستطاعت أن تتسلل إلى أعماقها المضطربة، وبعد أن عرفت منها كل شئ عنها، وأرادت سمية أن تتأكد من خضوع هيام لها .. فبادرتها متساءله:

- ماذا ستفعلين بعد أنتهاء فترة محبسك ؟

مضت لحظات صمت كما لو كانت قد أكتشفت فجأة بأنها سوف تخرج للمجتمع ذات يوم .. ثم قالت على أستحياء :

- لست أدرى .. وأنت ماذا ستفعلين

ضحكت بميوعة قبل أن تجيب قائلة :

- أنا يا حبيبتي لا أفعل شيئاً .. الآخرين هم الذين يفعلون .

نظرت إليها في بلاهة .. ثم تساءلت من جديد :

- لا أفهم مقصدك

أسترسلت سمية في توضيح الامر قائلة :

- أنا آآمر فقط .. أشترط فقط.. أرغب وأنال ما أريد ..أسعى

وأصل إلى ما أحب .. أشتهى المال كالطعام .. والجنس والحب كالمال والهواء .. أشعر بالرضي لإنكسار الآخرين من حولي .. أهضم عذابهم بلذه .. وأرتوي من مدامعهم بلهفة .. وأغفو على أنات الامهم .. وأشعر بالدفئ من لهيب مآساتهم.

قاطعتها هيام بلا أرادة قائلة :

- انا لا أصدق أن يكون كل هذا الحقد في داخل أعماق فتاة جميلة مثلك .

- هيام يا حبيبتي .. قد نكون أنا وانت في نفس العمر تقريباً ولكن بالتأكيد خبراتنا مختلفة ومفهوم الحياة بيننا متناقض تماماً .. فأنت لا تعلمين شيئاً عن الواقع الذي نعيش فيه قد تكون الصدفة قد أوقعتك في بعض الظلم بالرغم من نواياك الحسنة .. أما أنا فلا .. أنا الحياة جعلتني أتجرع مفاهيم ما كنت أتصور يوماً أنها الحقيقة الوحيدة في حياتنا .

- أي مفاهيم تقصدين ؟

- إن المال .. والجنس .. والسلطان هم شرايين الحياة الحقيقية .

المال تحققين به كل رغباتك حتى ولو كانت بلا سعادة .. والجنس هو النداء الوحيد الذي يمكن للبشرية جمعاء ان تلتف حوله وتلبى صيحته .

والسلطان هو الحماية والأحساس بالقوة .

فمن كان يملك أحد هذه المفاهيم الثلاثة فهو سعيد بلا شك .. ومن يقدر له أن يملك إثنتان منهم فهو سعيد وآمن أيضاً .. أما ..

ولكنها توقفت عن الكلام وأستغرقت في ضحكة بصوت أكثر ميوعة .. ثم أردفت :

- أما يا عزيزتي التي تملك مقومات الثلاثة .. فهي تصبح اسطورة تعيش بالحياة ومعها وفيها.

إرتسمت إبتسامة ساخرة على شفتي هيام قبل أن تقول :

- تقصدين نفسك مثلاً .

أجابت بجدية :

- ولما لا .. فأنا أملك المال وأدير أعمالي من خلال مشروعات مختلفة .. وأملك أسلحة الفتنة التى لا تقاوم كما أن علاقاتي على أعلى مستوى تتخيلينه .

تساءلت هيام ببراءة :

- إذا كان الامر كذلك .. فما الذي أتي بك إلى السجن .

أطلقت سمية زفرة طويلة من صدرها ،وكأنها تنفث لهيب البركان المتأجج في أعماقها .. وأجابت :

- الغباء يا عزيزتي .. إحساسى بالسطوة والقوة جعلني أتصور أن لا أحد يفوق قدراتي .. الغباء .. أوقعني في بئر الغرور.

لم أكن أعلم أن العيون التى كانت تلاحقني في كل مكان من الممكن أن تغلق جفونها فجأة .

وبأن كل الأيادي التي كانت تتسابق من أجل مساندتي من الممكن أن تبسط أكفها فجأة لتجعلني أهوى إلى السحيق بلا رحمة .. لم أكن أعلم أن الوعود والأماني ممكن في لحظة واحدة أن تتحول إلى سراب ووهم كبير .. أتدركين لماذا ؟

و .. لم تنتظر منها إجابة .. وأردفت :

- لانني خدعت نفسي .. وتوهمت غير الحقيقة .

- أي حقيقة !!

- حقيقة أن أمثالي عليهم واجبات فقط .. وليس لهن حقوق واجبات يقدمونها كالقرابين ولكن في الخفاء من أجل أن تحصلي على ما يمنح لك، لا على ما تصبو إليه .. إكتشفت فجأة أن ليس من حقي أن أختار ولكن من واجبي أن أستجيب للإختيار .. إختيار له مقابل .. هذا المقابل يمنحك الثراء بلا قناعة .. والترف بلا متعة .. والنفوذ بلا قدرة تساءلت هيام وقد أستفزها ذلك التناقض قائلة :

- إذن أين المقومات التى كنت تتحدثين عنها .. لماذا لم تحتمى بالمال .. والحب والسلطان كما كنتي تقولين .. ما الذي كان ينقصك .

أجابت وهي تكظم غيظها :

- الذكاء .. نعم كان ينقصني الذكاء. لقد بهرتني حياتي الجديدة فأندفعت بكل قواي دون حذر .. فسقطت سقطتي هذه .. لم أكن أدرى أن الذكاء هو العصى السحرية التي تحركي بها كل المقومات التي تملكيها.. وبدون الذكاء تصبحين كالجاهل الذي هبطت عليه فجأة ثروة طائلة فأشتري بها كل القواميس والمعاجم النفيسة ثم جلس بجانبها وهو لا يعرف شيئاً .. بدون الذكاء تصبحين كالمرأة الجميلة التي تلطخ وجهها بكل الوان المساحيق الغالية دون تهذيب فتصبح أضحوكة للآخرين .. الذكاء هو أن تتعلمي كيف تتعاملين مع الأشياء .. و..

صمتت برهة أحتوتها فيها بنظرة ثاقبة.. ثم أستطردت قائلة:

- من أجل هذا لا أريدك أن تفوتي تلك الفرصة .. وأن تتعاملي معها بذكاء .. وسوف تذكريني بالخير دائماً .
- أيه فرصة تقصدين ؟
- أن تطيعيني .. وأن تثقي في .
- كيف ؟
- أريدك أن تعملي معي .. سأمنحك الفرصة والخبرة .. فأنت تملكين جمالاً بكراً تنساب إليه أرصدة أعتى البنوك ..

وانوثه نابضة تصهر من حولها صلابة الحديد .. عيناك تشع براءة ستجعلك تمتطى كبرياء الرجال المتكبرين والمهرولين للمتعة .. سأمنحك الفرصة لأجعلك تنتقمي من هذا المجتمع الظالم الذي جعل من تضحيتك جريمة .

و.. تسللت الكلمات إلى أوردة هيام لتضخ في قلبها نبضات جديدة لها إحساس مختلف تماماً عن نبضات حياتها السابقة .. كلمات شيطانية أرتدت ثوباً ملائكي وراحت تتشرنق حولها حتى طمست معالمها الحقيقة .. فكان من الطبيعي أن تثق فيها .. بل وجعلت منها قدوتها .

ومرت الليالي وهي تسحب الشهور خلفها ..ومضت الأشهر وهي تستدعى السنين في جوفها .

وأنتهت مدة السجن .

وأنهت معها هيام كل صلاتها بالماضي .. لتبدأ رحلتها الجديدة مع المجهول .

ولم تجد سمية أيه صعوبة في نقل خبراتها إلى هيام وكأنها كانت مهيئه لذلك .. أسابيع قليلة .. باتت بعدها هيام سالم محور إهتمامات طالبي المجون .

إتسعت دائرة علاقاتها مع سيدات المجتمع من خلال مركز التجميل الذي عملت به في أحد مشاريع سمية .. وأنتشت

مشاعرها وهي تستقبل كل ليلة حول موائد القمار الكلمات المعسولة والأعين المبهورة .. و ..

الأموال المرصودة .

كانت سمية تتابعها بإعجاب كبير وأحياناً بغيرة شديدة وإزداد تعجبها وإنبهارها بها، خاصة بعدما علمت منها إنها ذهبت إلى الإسكندرية لتسأل عن أخبار أمها من الجيران وعلمت منهم أن والدتها تسولت في الشوارع والأزقة وهاجمها المرض بلا رحمة .. ودفنت في مدافن الصدقة. وبالرغم من ذلك عادت إليها لتقص عليها تلك الأنباء وكأن الأمر لا يعنيها .

ولكن .. ما لم تعلمه سمية أن هيام عادت وهي تحمل في قلبها حقداً يفترش صحراء الدنيا، وغلاً تتضاءل أمامة كل ألوان الكراهية.

وإزدادت جمالاً ..

جمال الأفعى الرقطاء .. ملساء كالكثبان الناعمة، هادئة كأعماق المحيط، مترقبة كالنمرة الجائعة.. ظمآنة كالأرض الجرداء.

تضحك فتنتفخ أوداج الأثرياء .. وتسامر فتجن جنون الأسوياء ..وتحاور فيسيل لعاب السفهاء.

إلى أن سقط أحدهم .. قائد مسيرة البلهاء .

بعد أن ذاب وهام بحبها .. فسلبته إرادته بجمالها، وعدته بما لا يملك ويشتهي .. ناورته فإستسلم لهزيمته منها وهو في قمة

الرضى وإنتهي به الأمر أن يعرض عليها كل ما يملك مقابل رضاها .. فألمحت بأنها تريد الإستقلال أو الإنشقاق عن قرينة السوء سمية .

وكانت أولى طعناتها .. باكورة خبراتها.. في ظهر سمية بلا مقدمات وحقق لها الرجل كل ما أرادت .

فكانت الفيلا الأنيقة .. والسيارة الفارهة. والرصيد البنكي.

و.. حققت هي الرحيل بعيداً عن الماضي القريب .. بعيداً عن قدوتها التي أكتشفت بعد رحيل هيام إنها لم تستطع أن تتخلص من غباؤها وهي في السجن .

رحلت هيام مع رجل الأعمال الأشهر فؤاد المنياوى لتبدأ معه ترتيب حلقات علاقاتها الجديدة.

وأنتقلت الصورة كما هي الى فيلتها الجديدة .. السهرات الماجنة والمقامرات الصاخبة .. والمناورات الكاذبة .

ولكنها كانت حريصة تماماً أن تستفد من تجارب سمية.

فتعاملت مع كل حدث بذكاء شديد .

حتى إعتادت أن تهمس إلى نفسها كل ليلة قبل أن تستسلم للنوم، بأن تتساءل ما هي خطة الغد.

فبات النوم يؤرقها .

٧

لا عطاء بلا مقابل ...

هكذا أكتشفت هيام سالم ذلك المعنى في حياتها ..أو .. فرضه الواقع .

لابد من المقابل .. الفيلا، والسيارة، والرصيد .

كان عليها أن تتخذ القرار .. ولكن .. كيف ومتى واين كل هذا جعلها تموت وهي تحيا، وتحيا وهي تموت .

فوافقت ...

وافقت على كل شروط فؤاد المنياوي بان تتزوج منه سراً عرفياً .. كما وافق هو على شرطها الوحيد بأن تكون ورقتي الزواج في حوذتها .

ولأول مرة تشعر بأنها صاحبة قرار دون أن تلجأ لاحد .. وكان قرارها الأول هو بناء مقبرة حديثة خاصة بها، وكلفت أحد معاوني زوجها الولهان بنقل رفات والدتها من مقابر الصدقة وكذلك رفات شقيقتها إلى المقبرة الجديدة. وكان لها ما أرادت .. دون أن تذهب إلى هناك، وكأنها تعمدت ألا تحضر تلك المراسم.

وبدأت تمارس حياتها الجديدة، وكأنها أمرأة بلا ماض أو ذكريات .

السهر طوال الليل حول موائد القمار .. والوجوه المتغيرة بإستمرار، ونزيف الأموال الواردة من بين أنامل السكارى .. وممارسة لعبة الإبتزاز مع فؤاد المنياوي، مع كل رغبة ملحة منه للإنفراد بها وكأنها تقايضه بشبابها مقابل أمواله .

ولكن كان للقدر كلمة أخرى .

أطلقها صيحة مدوية كادت أن تمزق شرايين كيانها، وكأنه يوقظها من غفلتها أو كأنه يعيد إليها كل أنات وآلام ماضيها التي حاولت بإصرار أن تتخلص منه .

وعاد الماضي بكل أحزانه، وطفح أمام عينيها وأستقر في أعماق أعماقها شريط الأحداث السابقة .. كل هذا في لحظة واحدة لحظة بعمرها كله .. وذلك عندما أستعدت لإستقبال وفود الليالي الصاخبة كالعادة .

فوجدت نفسها وجهاً لوجه أمام رجل الأعمال الثري الذي دفع ثمن حياة شقيقتها، والذي أتاح الفرصة لزوج أمها أن يستثمر موت توأمها ..والذي تسبب في كل رحلتها مع الألم والأحزان.

عرفته دون أن يعرفها .. كانت تراقبه وهو يلعب بالورق



وتتخيله وكأنه يحرك بأصابعه ماضيها المؤلم .. تراه وهو يضحك وتتصور الدماء تسيل من جوفه فوق شفتيه بعد أن إلتهم حياة أختها ..وتلمحه وهو يفرغ الكؤوس في أمعاؤه كما أفرغ برائتها وأمانها وأطفئ شمس الأمل في أعماقها .. رأته كالشيطان .. ولكنه شيطان أبله كغيره من خفافيش الليالي الحمراء .. وبدأت تنسج شباك مفاتنها حوله وهي لا تضمر هذه المرة أن تبتز أمواله .. كانت رغبتها أعظم بكثير من ذلك .. كانت تأمل في كل لحظة تسقط نظرتها عليه أن تبتز حياته نفسها .

كانت رغبتها أن تقتله .

وأصبح هذا الوافد الجديد هو الوجه الوحيد الذي لا يتبدل مع زوار زوجها وضيوفها أيضاً .

وأستطاعت أن توطد علاقته بفؤاد المنياوي إلى أن أصبحا لا يفترقان تقريباً .

وأقتربت منه أكثر، وبدأت تعرف عنه الكثير .. علمت بأنه أحد أكبر الأثرياء، وبأنه يعيش حياه هادئه مع أسرته الصغيرة .. زوجته لا تجد الوقت الكافي الذي تستغرقه في الإستمتاع بحياتها وبثراء زوجها من رحلات متتالية وأندية مختلفة وشاليهات ومجوهرات .. و ..

تخمة الرفاهية .

وأبن متزوج حديثاً وأعلن عن رغبته لوالده بأن يعيش في سويسرا وكان له ما أراد في فيلا تطل على ما ابدع الله من جمال الطبيعة .

وأبنه لا زالت تستكمل تعليمها في إحدى الجامعات الباهظة التكاليف .

كان يثرثر أمامها عن حياته الخاصة .. وهي تنظر إليه في صمت وهو لا يدري إنها تجتر ذكرياتها وهي تحاور نفسها المكلومة.

غفرانك يا ربي .. فأنا لا أحتمل كل هذا الحقد في قلبي .

ولكن كيف أتحصن من مخالب الكراهية وهي تنغرز في وجداني وأنا أرى الماضي البغيض يتجسد أمامي في صورة هذا الرجل.

كيف أنأى بنفسي من تلك الأحاسيس وأنا أعلم بأن قاتل توأمي ينعم بسحر الطبيعة وهو يحقق رغبته وكأنه يطلب من أبيه مجرد دمية يلهو بها .

كيف يا ربي أنقذ إنسانيتي من براثن الشر، وأنا أراه يدلو برغباته وملذاته كل ليلة، وابنته تقود أحدث ماركات السيارات وترتدي أفخر أنواع الملابس .

كيف .. وأنا ..

ولكنها إنتبهت فجأة على صوته وهو يحدثها قائلاً باستظراف :

- تلك هي قصتي كلها يا هانم .. ولا ينقصني غير أن ألتقى بالإنسانه التى تفهمني وتحبني بصدق وليس من أجل أموالي .. و ..

إرتسمت إبتسامة بلهاء على شفتيه قبل أن يلمح لها مسترسلاً :

- إنسانة مثلك حباها الله بجمال لا يقاوم .. ووجه ملائكي ساحر وذكاء يدغدغ القلوب قبل العقول .. ولكن للإسف ليس كل ما يتمناه الإنسان يحصل عليه .. فقد سبقني فؤاد بيه وحصل عليك .

ثم ضحك من أعماقه، تمنت هي في لحظتها أن تنقض عليه وتكتم أنفاسه بلا هواده .

ولكنها تراجعت عن رغبتها بإبتسامة باهتة قبل أن تهمس قائلة :

- أستأذنك لحظة .. يبدو أن زوجي يريدنى في أمر ما .

وأنصرفت من أمامه بحجة مسامرة ضيوفها الآخرون .

وبدلاً من أن تتجول وسط الآخرين كالعادة .. تسللت إلى غرفتها بالطابق العلوي، وألقت بنفسها فوق الفراش وكأنها عائدة من رحلة شاقة قاسية على قدميها، فأعياها الطريق .

وفي الصباح وجدت نفسها بملابس السهرة بعد أن غلبها النعاس .. كأنها ماتت فجأة .. وعادت فجأة .

وكالمسحورة بدات تتحرك كما لو كانت مبرمجة لهدف معين، وراحت تبدل ملابسها و تزيل آثار الالوان الصاخبة التي فوق بشرتها ووقفت برهة أمام المرآة وكأنها تتأكد من عودة هيام سالم الفتاة البريئة ... و ..

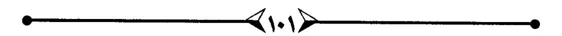
قطعت الطريق بسيارتها متجهة إلى محمود العائد هو الآخر من الأسر ألجمتها المفاجأة عندما وجدت نفسها أمام فتاة رقيقة، فتساءلت بهمس :

- الأستاذ محمود هنا .

وقبل أن تجيبها المراة الصغيرة ..ظهر محمود من خلفها وما أن رآها حتى بادرها فرحاً :

- مستحيل .. آنسة هيام .. أنا سعيد جداً لرؤيتك .. تفضلي .

ومع خطوتها الأولى للداخل .. أكمل مسترسلاً وهو يشير إلى الفتاة :



- أقدم لك زوجتى مديحة .

ثم إلتفت إلى مديحة قائلاً :

- أعرفك بهيام شقيقتي التي لم تلدها أمي .

إبتسمت مديحة إبتسامة هادئة وقالت بصدق :

- كيف تعرفني بها وأنت لم ينقطع حديثك عنها مطلقاً منذ تزوجتك ..

نظرت إلى هيام مسترسلة :

- في الحقيقة يا أنسة هام لقد أحببتك دون أن أراك عندما عرفت بمواقفك العظيمة السابقة .

همست هيام وهي تجلس قائلة :

- أشكرك .. وأنا أيضاً أحببتك من أول نظرة .. لإنني على يقين بإن أخي محمود قد أحسن الإختيار تماماً .

ضحك وهو يقف بينهما قائلاً :

- ها أنا أصبحت بلا ضرورة .. فأنتما أصبحتا صديقتان في لحظة وأشترك الجميع في ضحكة سعيدة .

وفجأة ذابت الإبتسامة من فوق شفتيها عندما بادرها محمود متسائلاً :

- وكيف حال الاستاذ أحمد سمير ؟



زاغت نظرتها وإبتلعت ريقها قبل أن تجيب على إستحياء :

- في الحقيقة لقد إنقطعت أخباره عني .

وقبل أن يعبر عن دهشته .. أستطردت قائلة :

- لعله تزوج .. أو .. عاد إلى هجرته .

أدرك محمود في هذه اللحظة إن عليه أن يتوقف عن ذلك الموضوع .. وما كاد أن يبدل حديثه قائلاً :

- لا تتخيلي قدر سعادتي بقدومك لنا .

إلا أن زوجته مديحة، أصرت على نبش الجراح دون أن تدري .. بقولها :

- لا يا محمود.. تلك أول معلومة خاطئة ذكرتها لي .. فأنت أخبرتني بقصة حبهما .. وبأنهما بالقطع تزوجا .

لم ينبس ببنت شفة .. بينما جاهدت هيام في رسم إبتسامة خفيفة على شفتيها قبل أن تعقب قائلة :

- كل شئ قسمة ونصيب ونحن طوع أقدارنا .. و ..

وأنتقل الجميع من حديث إلى أخر .. واختلفت الموضوعات مع مرور الوقت دون أن يذكر أسم أحمد سمير مرة أخرى .. وكانت مديحة على قدر كبير من الذكاء، حيث شاركتهما في الحوارات المتبادلة عن ذكريات الماضي وكأنها كانت تعيش تلك

الأحداث في ذلك الوقت معهم .. وبالرغم من أن محمود أعاد عليهما قصته مع الأسر وظروف معاناته إلا إنهما كانتا ينصتان إليه بإهتمام، وكأنهما يستمعان لتلك القصة لأول مرة .. والحقيقة لم تكن كذلك .. فكل منهم حاول أن يهرب من واقع بداخله حتى لا يعرف الأخر بما يفكر فيه .

مديحة كانت تهرب من سؤال حائر إفترس عقلها منذ اللحظة التى ظهرت فيها هيام ..وهي تتساءل ..ترى كيف كانت طبيعة العلاقة بينهما ولماذا أخفى زوجها عنها إن علاقة أحمد سمير بهيام قد إنتهت، ومحمود كان يهرب بحديثه من كثرة التساؤلات التي هاجمت ظنونه .

فهو يريد أن يستفسر عن سبب التغيير الشامل الذي بدت عليه وعن ملامح الثراء التي ظهرت عليها فجأة .. ولكنه في النهاية لم يستطيع أن يحقق أي رغبة من هذه التساؤلات .

بينما هيام كانت تهرب بالتظاهر بأنها منصته خشية أن تفضحها ملامحها بما يجيش بصدرها

فهي أيضاً حائرة ..

وكأنها تذكرت فجأة كل شئ .. كل الأحداث بتفاصيلها .

تذكرت الرجل الطيب وزوجته المثابرة ..وعودة محمود وما

كان بينهما .. وأحمد سمير الغائب الحاضر..وأمها وتوأمها .. و ..وزوجها .

وعندما أستقرت بها الذكريات عند تلك المرحلة .. وجدت نفسها تنهض فجأة قائلة:

- معقولة .. لقد سرقنا الوقت، ومضت الساعات دون أن أدري.

فلاحقها محمود معترضاً :

- أي وقت الذي مضى .. فأنت اليوم لن تغادري هذا المكان .. لابد وأن تمضي يوماً أو يومان .

إتجهت بخطواتها تجاه الباب وهي تقول :

- لا أستطيع .. فزوجي بإنتظاري في المنزل .

كالصاعقة تلقى محمود إجابتها .. بينما صرخت مديحة مبتهجة قائلة :

- إنها مفاجأة رائعة .. لقد كنت مندهشة كيف لم يتم زواجكما أنت والأستاذ أحمد سمير .. فكما علمت من محمود أن بينكما قصة حب تفوق الخيال .. ألف مبروك يا هيام .. لماذا لم تحضريه معك فأنا شغوفة لأن أتعرف به .

إلتفتت نحوها بهدوء ثم قالت :

- لا .. أنا بالفعل لم أرى أحمد ولكنى متزوجة من رجل آخر .. و ..

أكملت إنصرافها للخارج .. وأغلقت الباب دونها تاركة محمود وهو غارق في الصمت .. و..

الحيرة .

أخذت طريق العودة .. ولكن .. كانت عودتها تلك المرة مختلفة تماماً في كل شيء .

عادت وهي تحمل في وجدانها أنات الماضي الظالم، ومرارة الواقع والخوف من المجهول .

شعرت وكأنها إنسانه أخرى غير التي عرفتها وتعايشت معها .

إنسانة ضاع الطريق من تحت قدميها .. إحتارت بين نفسها وبين ظلها .. لا تعرف أين الحقيقة وكيف يكون الصواب .

هي هيام الفتاة البريئة والرقيقة، والتي داهمتها أعاصير الماضي الكئيب .. أم هيام المرأة المثيرة التي أخضعت الظروف لتحقيق ما يمكن تحقيقه بعيداً عن طبيعتها .

و.. فشلت في البحث عن نفسها ..

دخلت إلى فيلتها، وراحت تتصفح الوجوه .. تخيلتهم أشباه بشر أو أشباح هلامية متداخلة بلا كيان محدد .. الجميع ينظر للجميع ولا أحد يرى الآخر .. يثرثرون وتضل الكلمات قبل أن تصل إلى مسامعهم .. يضحكون إلى أن تغرورق أعينهم في حالة

عدم .. لافرق بين الضحك والبكاء مابين الهزيمة والإنتصار والكبت والإنفجار .. الصهد واللهيب .. ما بين الهمس والفحيح والصوت والصدى .. ما بين أحلام اليقظة والحقيقة .

رأتهم سكارى حيارى .. لاشئْ يجمع بينهم غير موائد القمار وهم يلتفون حولها، وكأنهم في إنتظار الإنقضاض على الفريسة رأتهم غائبون وواهمون .. لايعلمون بأن كل منهم فريسة للآخر و.. رأت فريستها هي .

إقتربت منه وسط ضباب دخان السجائر، وكأنها آتيه من عالم آخر .. وتلقاها ذلك الذي قايض على حياة توأمها .. وتدلت الإبتسامة البلهاء فوق شفتيه تسبقه أحاسيس الرغبة قبل كلمات الترحيب بها .. وقال متلفهاً ومتدلهاً :

- هيام هانم .. لقد أفتقدتك بحق .

جلست بجواره فوق الأريكة .. وهمست بدلال :

- لاداعي للمبالغة .. ألا يكفيك كل هؤلاء الحاضرين !!

أجاب متحمساً :

- أقسم أنني لا أرى أحداً سواك الأن .

قالت والخبث يدغدغ نبرة صوتها :

- يبدو إنك من الرجال اللذين لا يستهويهم غير ما هو في كنف غيرهم .

- الحياة مقامرة كبيرة .

دنت منه قليلاً، حتى أنه شعر بأنفاسها تخترق شرايين كيانه .. وعقبت بميوعه :

- ولكن المقامرة إحتمالات الهزيمة واردة فيها .. فأنت اليوم فائز وغداً قد تصبح مهزوماً .

إزداد تودداً وهو يرتب على كتفها برقة .. ثم قال ضاحكاً :

- يا ..عزيزتي .. المقامر الثري لا يهزم أبداً، حتى ولو فقد الكثير من أمواله .. لإنه في النهاية لن يشعر بمرارة الفقر والإحتياج .

رددت دون إرادتها :

- والمقامر الفقير ماذا يفعل بينكم .

أجاب بثقة وتعجب :

- يقامر بحياته .

لاحقته وكأنها تنقض عليه :

- هل في مقدورك أن تثبت ذلك .

جلجلت ضحكته قبل أن يتساءل :

- لماذا .. هل تنوين المقامرة معي .

- نعم أنوي ذلك .

- إذن لنبدأ .. ماهو رصيدك يا غاليه .

أجابت بجديه، وهي تسلط نظرتها إلى عينيه :

- أنا ....

تلفت حوله وكأنه يبحث عن معنى كلمتها .. ثم عاد إليها متسائلاً :

- ماذا تقصدين ؟

- ألم تذكر لي دوماً بأنك كنت تتمنى ألا يسبقك فؤاد ويفوز بي .

تنهد بحسرة وهو يجيب :

- أجل كنت ولازلت أتمنى .

- إذن .. أنا امامك وأريني كيف يمكنك المقامرة معه ... و...

تحفزت لتحمسه وتعمدت نحر كبرياءه المتغطرس وهي تسترسل قائلة :

- وأنا متأكدة بأنه سيكون الفائز عليك .. وسيبقى الأمر كما هو .. أنت تريدني وأنا لا أريده .. وفي النهاية أنا الخاسرة الوحيدة

تشجع أكثر وهو يضع يده فوق يدها .. ثم قال متحدياً :

- إذا كنتي جادة حقاً .. فبإمكاني أن اثبت لك هذه الحقيقة .

فنحن هنا يا هيام هانم لا ننظر إلى ما نشتهيه ولا يهم أن يكون في حوزة الآخرين .. فلكل شئ مقابل .

- يبدو أن الشراب لعب برأسك.

- أعطني الأمان والعهد .. وأنا على إستعداد لدفع كل الملايين التى أملكها مقابل أن أفوز بك .

همهمت بإستكانه :

- وفؤاد .

- فؤاد لا يختلف عن أحد .. فهو مؤكد حصل عليك بمقابل .

إستفزها تعبيره .. فقالت بلا حياء :

- ألم تجد تعبيراً أقل وقاحة من كلماتك هذه .

هاجمه أحساس بالخوف من أن يفقدها .. وأجاب متهذباً إلى درجة التواضع المنكسر :

- أرجوك لا تغضبي .. فقد خانني التعبير .. ولكني قصدت أن أعبر لك عن مدى تمسكي بك .. فؤاد سوف يسيل لعابه أمام صفقة أقدمها إليه سينهل منها بضعه ملايين .. أما أنتي فسأمنحك كل حياتي .

- وأنا موافقة ..

و .. قبل أن يسترسل في أمانية .. وقفت فجأه تصاحب إبتسامتها الرقيقة إليه نظرة لا حياه فيها .

وبينما هي في طريقها إلى الدور العلوي، لاحظت أن فؤاد كان يراقبها عن بعد .. فتوقفت لحظة تتأمل ردود أفعاله ولكن الدخان الضبابي إحتواه فجأه حال بينها وبينه، فأستدارت مرة أخرى منصرفة بلا مبالاة.



٨

كان يوماً من أيام الطبيعة الثائرة .

الهواء مثقل برمل الصحراء، والسماء تتاهب لذوبان السحب .. والشمس تلملم جدائلها الدافئة، وأفرع الاشجار حائرة في كل إتجاه .

بينما كانت هيام تراقب تمرد المناخ من وراء زجاج النافذة، وكأنها تحتمي من ذلك الهياج الخارجي حتي لا يتضامن مع إضطراب مشاعرها وتشتت أفكارها .

كانت تراقب بلا تأمل .. فكل حواسها باتت تحت قبضة الخوف من المجهول .

عشرة أيام مضت منذ آخر لقاء مع فؤاد المنياوي ولم يظهر بعدها ولم يتصل بها . كما لم يتواجد رجل الاعمال صاحب المقايضة، حتي ذلك الولهان أختفي فجاة ودون مقدمات .

فأضطربت، وأختنقت .. واحبطت .

وكأنها لا تريده أن يغيب عن نظرها لحظة .. لا طمعاً ولكن تربصاً به .

تريد من إستثمر موت توأمها، أن يظل دائماً تحت سيطرتها لعله يفقد أمواله بطريقة ما .. أو حياته .. وذلك ما تتمناه .



ولكن .. جاءت الاحداث علي غير ما تمنت .

حيث فوجئت بحضور فؤاد المنياوي وهو يتقدم نحوها وكأنه يزحف كالافعي، التفتت إليه بنظرة صامتة ولكنها تحمل الكثير من معاني التحفز والترقب .. و ..

الاستياء .

حاول ان يقول شيئاً ولكن أفزعته نظرتها المتربصة، فماتت الكلمات فوق شفتيه .. و ..

فوجيء بها تبادره قائلة بنبره متهكمه :

- علي من رسي المزاد .. ؟

تأملها مضطراً دون أن يتفوه بينت شفه .. بينما أردفت هي:

- أقصد بكم كانت قيمة الصفقة .

جلس علي أول مقعد إقترب منه وكأنه يحاول أن يبدو الامر طبيعياً وقال متجاهلاً سؤالها:

- كيف حالك يا هيام .. ؟

جلست علي الاريكة المقابلة له، وآجابت بعد أن سحبت إبتسامه ساخرة فوق شفتيها :

- كيف حالك أنت .. طمئني .. هل أتممت صفقتك يا عزيزي.

أدرك فؤاد أن لا مفر من مواجهه الامر .. فأستجمع ثقته بنفسه وقال :

- أراك تعلمين كل شيء.. وعلي كل حال هذا ليس جديداً عليك.
- ولا عليك انت أيضاً يا فؤاد بك .. ولكن .. الفرق بيني وبينك إنني المقابل دائماً.

و .. قاطعها بجرأة وبلادة :

- اعتقد أن المقابل كان مجزياً بالنسبة لك .. ولا تنسي يا حبيبتي إنني كنت صاحب المبادرة في البداية وانفقت بسخاء.
- تقصد قايضت بشبابي .

اجاب بتهكم ساخر :

- هل لديك سلعة أخري كان يمكنك أن تقايضي بها، بدلاً من ذلك ؟!

شعرت بالاهانة تشرخ حنجرتها، فبدا صوتها متحشرجاً وهي تقول :

- نحن لا نملك إلا أن نلعن الظروف التي ..

ولكنه يقاطعها مرة أخري بقهقهة فاجرة..معقباً :

- يالها من تجارة مربحة .. إمنحيني فقط الملايين وانا علي استعداد ان العن الظروف صباحاً ومساءاً .

نهضت فجأة وقد تبدلت نظرتها وقالت :

- لنضع حداً لتلك المهاترات .. ماذا لديك أن تخبرني به .

مكث في مقعده دون حراك .. ثم أجاب بلا مبالاه :

- ألم أخبرك بأنك تعرفين أكثر مني بشأن ذلك الموضوع .. وعلي كل حال لا شيء عندي يمكنني أن أخبرك به وأضيفه لمعلوماتك غير أن الصفقة قد تمت .

إزداد إحساسها بالمهانة، وانخفضت نبرة صوتها وهي تتساءل علي استحياء :

- وكم ربحت مقابل أن تتنازل عني .. أقصد عن زوجتك .

رمقها بنظرة رأسية من أعلي الي أسفل قبل أن يجيب :

- أولا أنا لم أمتلكك يوماً حتي أتنازل عنك .. أنت وحدك كنت دوماً البائع والمشتري .. تبيعين نفسك .. و ..

تشتري بها أموال الاخرين .

إندفعت الدماء الي رأسها حتي كادت أن تشتعل، ورمقته بنظرة قاسية، وصرخت وكأنها تتقيأ:

- إنصرف من هنا فوراً .. قبل أن أجعل الخدم يلقوا بك الي الطريق

نهض بهدوء شديد، واتجه نحو النافذة وألقي بنظرة الي لا شيء ثم همس بثقة وتحدي :

- ليس قبل أن تمزق الورقتين .

أسرعت الي إحدي الغرف، وعادت بعد لحظات وهي ممسكة بورقتي الزواج العرفي، وراحت تمزقها أمامه بكل غل واحتقار .. مرددة :

- أنا لا يشرفني أن أحتفظ بك زوجاً .

لاحقها بفتور مستنفر :

- ولكن يشرفني أنا أنني إستطعت التخلص من براثنك .

-أغرب عن وجهي فوراً .. وإلا ..

إستدار متجهاً الي الخارج بخطي ثابتة، ولكنة توقف فجأة قبل أن يكمل إنصرافة و التفت نحوها قائلاً :

- بالمناسبة ... أعتقد أن ما حدث اليوم هو بمثابة أول صفقة خاسرة تقومين بها .

لاحظ إهتمامها المفاجيء .. فأستطرد قائلاً :

- هل تدركين لماذا .. ؟

شجعه صمتها لان يواصل كلماته بتشفي :

- لان صاحبك الولهان يا عزيزتي، لم يعد في مقدوره أن يمنحك المقابل .

وما كاد يكمل مسيرته تأهباً للإنصراف، حتي صاحت به دون أن تدري صارخة :

- إنتظر ..

ثم تقدمت نحوه بهدوء المترقب .. وعند إقترابها منه همست متساءلة بإستعطاف:

- ماذا تقصد بكلامك هذا .. ؟!

- أقصد أن حبيبك المتصابي قد إبتلي بمصيبة كبري ستقضي علي كل ملذاته فيما بعد .. لقد إكتشف بأن إبنته قد أصابها مرض السرطان اللعين، وهو الان يقيم علي أعتاب باب غرفتها بالمستشفي .

قالت وكأنها ترجوه :

- ما أسم المستشفي من فضلك .. ؟

أخبرها بأسم المستشفي، وأنصرف دون أن ينتظر منها تعقيباً.

كادت أن تهوي علي الارض، كما هوت الحسرة والحيرة في أعماقها.

ومرة أخري تجد هيام سالم نفسها بلا هوية .. لا تعرف ماذا تريد وعن ماذا تبحث .. أخذت تروح وتغدوا بين الغرف بلا هدف .. تارة تقف أمام النافذة تتابع زمهرة الطبيعة، وتارة أخري تعود الي مقعدها وكأنها تسقط في هوة سحيقة .. ثم تنهض بلا

إرادة وتعاود الخطي بلا إتجاه .. وكأنها تبحث عن قرار تتخذه .. أو .. كأنها تبحث عن نفسها .

و ... إتخذت القرار .

القرار الذي نسجته خيوط الماضي الواهنة، فأحكمت نسيجها حوله كخيوط العنكبوت وقدمته الي وجدانها، ليضعها في مأزق لا حول لها ولا قوة به .. في لحظة مأساوية من الصعب أن يتحملها ضمير أي إنسان .

لحظة تصارع الانسان مع إنسانيته .. الخير مع الشر .. الضمير مع الخوف من المصير .

القناعة والطمع، الحب والتملك .

لحظة .. يتحول فيها الانسان الي كيان يحتوي كل الوجود .. من نسمات وأعاصير .. من الحب والكراهية، من القوة والضعف.

من العجز والقدرة، الطموح والاحباط .

لحظة تضم كل شيء .. كل الزمن .. الماضي والحاضر وغياهب الغيب.

دون تنسيق وبلا وضوح .

وكان قرارها بأن تذهب الي المستشفي .

وذهبت .. توقفت برهه أمام موظفي الاستعلامات، وكأنها

تذكرت فجأة بأن مجيئها غير طبيعي .. فكيف سيكون الامر اذا تواجدت زوجة رجل الاعمال .. وكيف سيكون إستقبالها .. وما هي طبيعة العلاقة بينهما .

وبالرغم من كل هذه التساؤلات التي باغتتها، تقدمت بجرأة وأستفسرت عن رقم الغرفة .

وما أن وصلت الي بداية الممر لمحته يجلس بمفرده علي أحد مقاعد الأنتظار وقد أختفي وجهه بكلتا يديه، منكسراً ومنهارا .

تقدمت نحوه بخطي متحفزة كالفهد .

وقد تصلبت مشاعرها تماماً ولم يعد يشغلها من الموقف إلا تحقيق رغبتها الدفينة في أعماقها والتي طالما عانت من ويلات أحاسيس الحقد والأنتقام .

همست بنبرة ضعيفة وكأنها آتية من أعماق الماضي السحيق .. قائلة :

- صباح الخير .. إنتفض فجأة وكأنه لدغ من عقرب ضال بمجرد ما أن رآها .. تلفت حوله باحثاً عن أي شيء .. وكل شيء.

ثم همهم قائلاً :

- أهلا يا هيام هانم .. هل جئت لزيارة أحد معارفك هنا .



صمتت برهة قبل أن تجيبه .. ثم قالت وهي تركز نظرتها الي عينيه :

- بل جئت من أجلك أنت .

وكأنه تذكر مصيبته في تلك اللحظة، فعاود الجلوس فوق المقعد في شبه إنهيار .. وردد :

- أعلمت بالكارثة التي أنا فيها .. إبنتي تموت أمام عيناي ولا أعرف كيف أنقذها .. ابنتي تموت يا هيام وهي عندي أغلي من حياتي .

و.. لم يتمالك نفسه مستسلماً لبكاء مكتوم في إنكسار يتشقق له حجر الصوان .

جلست أمامة وقد تجمدت ملامحها تماماً .. وقالت :

حقاً ما أقسي أن يفقد إنسان ما أغلي ما عندة أمام عينية بلا تمهيد أو مقدمات .. و ..

قاطعها وهو لا يزال في نحيبه :

- لا .. لا .. أنت لا يمكنك أن تتصوري قسوة العذاب الذي ينهش في كياني .. أنا أتعس رجل في الكون كله .. إحساسي بالعجز امام إنقاذها قهرني وأذلني .. ليتني كنت مت قبل أن أعيش هذه اللحظة .

- من قال لك إنني لا أشعر بأحاسيسك الان .. فأنا أيضاً وقفت عاجزة في لحظة أمام موت شقيقتي وتوأمي التي رحلت عني فجأة .. وتركتني وحيدة أتعايش مع العذاب الابدي .

حاول أن يبدي إهتماماً لمجاملتها .. وقال :

- لعنه الله علي المرض الذي يفقدنا أغلي ما عندنا .
- قد يكون موت المريض رحمة لنا .. وبه .

تسللت الدهشة الي نظرته إليها أثر تلك العبارة .. وقبل أن يتفوه بكلمة أستطردت قائلة :

- أما الموت بالقتل المباغت، فذلك هو الجحيم للأهل .. والظلم للقتيل .

قال بلا إرادة :

- تعبيراتك غريبة يا هيام هانم، ألم تمت أختك نتيجة مرضها.

أجابت بصرخة مكتومة .. ومكلومه :

- لا .. بل قتلت علي يد صبي طائش نشأ علي الاستهتار واللامبالاه وأرتوي من مفاسد والديه، فكان نبته شيطانية يجب أن تبتر هي وأمثالها وتلقي للجحيم ليهنيء المجتمع بالقضاء عليهم جميعاً .

همس مشفقاً :

- الله يرحمها .

عقبت بتحدي وغيظ مكتوم :

- الله رحيم بعبادة .. ولكن بعض الناس لا تعرف الرحمة طريقاً الي قلوبهم .. تلهيهم مباهج الحياة .. وتغرر بهم أحاسيس الزهو بالسطوة والجاه والنفوذ .

فيظنوا أن عدالة السماء بعيدة عنهم.

ولكن الله يمهل ولا يهمل .

لم يجد ما يقوله غير أن يردد بلا مبالاة مرة ثانية :

- الله يرحمها .

وهنا نهضت في تحفز وهي تصيح بصوت مكلوم :

- قلت لك أن الله رحيم بعباده .. أما أنت فلقد جاء الدور عليك لتنال جزاء ما أقترفته جريمتك .

- جريمتي ؟ !!

- نعم جريمتك البشعة .. أم كنت تظن إنك فوق الحساب تصورت بأن بأموالك ونفوذك قد تستطيع ان تغسل يديك من دماء قتيلتك ، وتناسيت بأن عدالة السماء لا يغمض لها جفن.

الان جاء عليك اليوم الذي تدرك فيه بأنه قد يمكنك إستثمار الموت بل والتربح منه .. ولكن بكل أموالك وكنوز الدنيا لا

ولن تستطيع أن تشتري لحظة حياة واحدة .. وها أنت أمامي الان تقف عاجزاً ذليلاً أمام إبنتك.

وبكل أموالك ونفوذك وغرورك تفشل في المقايضة بهم مقابل لحظة حياة واحدة تعيشها إبنتك.

وقف أمامها مذهولاً وقد أفقدته المباغتة قدر من إتزانه وتساءل في حيرة :

- ما هذا الذي تقولينه .. ماذا تقصدين .. من أنت .

أنا لا أفهمك .. كأنك تهذين، فأنا شعرت بذلك منذ حضورك ما هذا الهراء الذي تقولينه .

تسمرت نظرتها الي عينيه .. وأجابت بقوة :

- أنا هيام سالم التي فقدت توأمي وتوأم روحي بعد أن أزهق إبنك المدلل روحها بسيارته الطائشة منذ سنوات .. أنا هيام سالم التي شهدت المقايضة الظالمة التي تمت بينك وبين زوج أمي .. الموت مقابل المال .. الموت الذي تربحتما منه أنت والرجل في آن واحد .. الموت الذي أستثمرته بأموالك فداء لأبنك، والذي إسستثمره زوج أمي من أجل الثراء المفاجيء .. اتريد أن تعرف نتيجة صفقتكما الظالمة .. أتريد أن تعرف .. سأخبرك لعل ضميرك يستيقظ .. أمي

تشردت وتسولت وطردت من بيتها .. وماتت ضائعة بلا مأوي .. وانا نزفت من قلبي وعيني علي حسرتي وقهري، عذابي إستقر في حلقي لا يريد أن يبرحه ومرارة العلقم تسحقني مع كل نبضه في قلبي .. وجدت نفسي في لحظة لا ذنب لي فيها .. مشرده تائهة المشاعر والطريق .. وحيدة بلا إنتماء ولا جذور .. دفعت ثمن جريمتكما من شبابي ومستقبلي واماالي .. و .. من جسدي .

وبصعوبة بالغة همس :

- أنت .. مستحيل، أنا لم أرك في تلك الفترة.

لاحقته بإصرار :

- كيف كنت ستراني .. وانت في وقتها لا يشغلك إلا جشع زوج أمي وسعادة أبنك .. أما أنا فأراك الان جيداً .. أراك والحسرة والخوف يمزقان شرايين قلبك من أجل إبنتك .. فأرني كيف ستنقذها بأموالك .. ارني كيف ستشفيها بنفوذك .. أريني كيف ستضيف الي عمرها لحظة واحدة .. و ..

إستدارت فجأة منصرفة .. ودموعها ترقرق بين جفنيها ونبضات قلبها تكاد تخترق صدرها من الانفعال والثورة .

وهي لا تدري حقيقة مشاعرها .. هل هي شامته أم مشفقة.

ولكن إحساسها بأن السماء هي التي إنتقمت لها حال دونها وعذاب الضمير .

وما أن عادت الي فيلتها، إجتاحها إحساس قوي لان تعود الي نفسها تعود الي هيام سالم التي فقدت معالمها طوال رحلتها الماضية المريره .

إحتجبت عن الاخرين .

لا زيارات ولا سهرات .. لا إتصالات بأحد ولا إستقبالات.

سيطرت عليها رغبة ملحة بأن تنفرد بنفسها تماماً.

وبالرغم من الليالي الطويلة التي كانت تقضيها منفردة .

لم تشعر قط بأنها وحيدة كسابق عهدها .. كانت تجتر ذكرياتها بكل تفاصيلها وكأنها تتعايش مع الماضي من جديد لحظة بلحظة .

رحلة طويلة قاسية، منذ أن أختطف الموت شقيقتها .. وليال الضياع المظلمة وهي تهيم من مكان الي مكان .. ومعاناتها مع أقاربها .. وأحاسيسها المضطربة ما بين القهر والمذلة، وحياتها خلف قضبان السجن .. وعلاقتها بسمية .. وآخرين غيرها.

بدت راضية وفخورة بنفسها لانها أستطاعت بالرغم من كل تلك الاحداث لم تسقط في براثن الخطيئة .. لم تقترف إثماً يشوه

صفحات ماضيها .. تزوجت كأي فتاة ولم تعرض جسدها بمقابل .. تحايلت علي الظروف وحققت ما ارادت بلا إبتزاز أو مساومة من أجل هذا إختلفت نظرتها الي كل شيء حولها .. شعرت بالأمان وهي تعود الي نفسها، بلا خوف أو ترقب .. أضاءت أعماقها بنور الأمل وسكنت نبضات التسامح في قلبها .. أصبحت تري السماء أكثر صفاءاً والشمس أعظم إشراقاً، والهواء عليل والماء سلسبيل .. رائحة الحب تفوح من حولها، وعطر الزهور يمتزج مع أنفاسها .

بات كل شيء جميلاً .. او هكذا أرادت أن يبدو كل شيء مبهجاً تأهباً لاستقبالها للحب الكبير .. والوحيد .. لأحمد سمير.

كانت اللهفة تسبق خطواتها وهي في الطريق إليه .

عادت إليه وكأنها لم تغب عنه لحظة واحدة .. ازدادت نضره بعد رؤيته وإزداد هو شوقاً بعد أن رآها .. الحب وحده هو الذي فرض سطوته علي لحظات الصمت الأولي التي جمعت بينهما في هذا اللقاء.

وكانت هي أكثر أستجابة الي مشاعرها الفياضة له .. وبادرته بحنان قائلة :

– إشتقت إليك ياأحمد بالرغم من أنك لم تغب عن خيالي قط.

أجاب وكأنه يضمها الي صدره :

- أنا في خيالك .. أما انت فكل وجداني .. ويعلم الله كم عانيت وأنا أبحث عنك في كل مكان

رفعت نظرتها الي عينيه، وقالت بصدق :

- حبك كان يحميني .. كنت أعيش به وأتعايش معه هو الذي كان يمنحني القوة والصبر لمواجهة كل الأزمات .. حبك هو الذي ..

ولكنه قاطعها بلهفة متساءلا :

- أين كنت يا هيام !!

أخذتها المفجاة من سؤاله .. وصمتت لحظات قبل أن تجيبه علي إستحياء غير مبرر .. وقالت:

- كنت أبحث لنفسي عن مكان وسط الاخرين .. حاولت ان أتسلح بالقوة التي يمكنها قهر الحرمان .. وقهر أي شيء يحول بيني وبينك .

همس بتوجس :

- ونجحت !!

سارعت قائلة :

- نعم نجحت .. واليوم لن يكون بيننا فراق بعد الأن .. لن تقهرنا الظروف والأمكانيات .. ولن ..

ومرة أخري يفاجئها بسؤاله :

- كيف .. ؟!

- سأخبرك كيف أستطعت ذلك .. و ..

- أخبرته بكل شيء، لم تخفي عنه أدق التفاصيل .. تحدثت بزهو لأنها أستطاعت ان تقاوم كل المغريات، وبسعادتها بما حكمت به عدالة السماء وبأنها نجحت في العودة الي نفسها .. واليه .

و .. وضعت يدها فوق يده برفق .. وقالت بحب كبير :

- والأن يا حبيبي .. هيا بنا نبدأ حياتنا من جديد، ونطوي صفحات الماضي البغيض .. لم تكن تدري أن بركانا عنيفا قد أنفجر في أعماقه، وهز كيانه بقوة مع كل كلمة حدثته بها وهي تقص عليه تفاصيل رحلتها .

سحب يده ببطء من كفها، وبصعوبة بالغة ردد وكأنه يحدث نفسه :

- خسارة .. ليتك ما أخبرتني بشيء .

استقرت الدهشة في مقلتيها وهي ترمقه بنظرة حائرة .. ثم تساءلت :

- ماذا تقصد بالخسارة .. أراك مهموماً يا أحمد .. ماذا حدث؟!

أجاب وقد تقلصت أسارير وجهه :

- يبدو أن الأقدار لازالت غير راضية عني .

حاولت أن تبتسم بلا مبرر، وكأنها تريد أن تخبره بعدم فهمها لمقصده .. ثم قالت بهدوء :

- أخبرني يا حبيبي هل لديك مشكلة ما .. أخبرني بها لعلني أستطيع مساعدتك .. فأنا وأنت الأن أصبحنا كيان واحد ولن يفرق بيننا أي شيء .. مهما كان .

- أنا ليس لدي مشكلة .. ولكن ..

فلاحقته بسعادة :

- إذن يجب ألا تقلق من أي شيء.. فكل الأمكانيات متوفرة الأن .. كفي ما ضاع من عمرنا ونحن نتصارع مع الخوف والاحتياج لقد أصبح لدي رصيداً في البنوك يكفي كل أحتياجاتنا والتزاماتنا .. سنحقق معاً كل ما كنا نحلم به .. و ..

ولكنه يقاطعها هذه المرة .. وقال بجدية وإصرار :

- إنصتي الي جيداً يا هيام .. فأنا عندما أحببتك، أحببت فيك براءة الملائكة ونقاء النفس .. أحببت فيك القلب الطاهر الذي تموج نبضاته بالخير والتسامح، أحببت فيك الأصرار علي مقاومة كل الظروف القاسية التي مرت عليك بلا ذنب إقترفتيه .. و ..

أخفض نظرته بعيداً عن عينها .. ثم استطرد قائلاً :

- الأن لا أري هيام التي عرفتها .. أمامي هيام إخري، وكأنك لا صلة تربطك بها .. رحلت نظرة الأمل من عينيك، وأنتحرت السماحة من ملامحك .. وعلت نبرة التشفي في كلماتك، وباتت تلميحاتك تسبقها سلطان المال الزائف وخداع بريق النفوذ .. وكأنك لم تظلمي يوماً ولم تعاني من قهر الأزمات .. ونسيتي بأن هناك أمور لا تشتري ولا تباع بالمال .. كالحب .. والأمان .

تسللت مسحة من الكآبة فوق وجهها قبل أن تقول :

- يبدوا إنك أنت الذي تبدلت .. ألم يكن كل شاغلك في الماضي أن تؤمن نفسك بالمال من أجل حبنا .. ألم تكن تلعن الظروف دوماً التي تحول بيني وبينك .. ألست أنت الذي حاول الرحيل بعيداً عني يوماً لاحساسك بالعجز أمام تحقيق أحلامنا .. فماذا حدث الأن .. ألست أنت أحمد سمير الذي أخبرني ذات يوم بأنك علي استعداد بالتضحية بكل شيء من أجلي .

أجاب في ثورة مكبوته :

- نعم أنا .. أنا الذي كنت علي استعداد بالتضحية بكل شيء من اجلك يا هيام .. ولكن ليس من أجل ما تبقي منك .

شعرت بكلماته وكأنها أسنه رماح رشقت في كيانها وراحت تمزق جسدها .. وقالت بتحدي :

- وما الفرق بيني وبينك .. فانت كنت تسعي للحصول علي المال من زوجتك الأجنبية من أجلي .. وانا حصلت علي أموالي من زواجي السابق .. من آجلك أيضاً .

إمتزجت الحسرة مع نظرته إليها، وسيطرت نبرة الألم علي كلماته وهو يقول :

- لا يا هيام .. لست أنا هذا الرجل ولكنك حتماً ستجدي هذا النوع من الرجال الذين يقبلون منطقك .. أما انا فلا أبيع نفسي ولا أشتري وهماً .

- هل كان حبنا وهماً ؟!

أجاب بإصرار :

- حبنا أغتيل .. نهشته مخالب الطمع في الثراء السريع .. وسحقته طواحين الانتصار الزائف .. حبنا تاة وسط ظلام الليل وأختنق من رائحة الرغبات المذلة .

وفي شبة صرخة قالت :

- كفي أرجوك .. ليتك ما قلت ذلك .. فأنا لم أتصور يوماً

بأنك ستساهم في ذبحي كالآخرين .. ليتك ما فعلت يا أحمد .. و ..

تركته مهرولة .

إنطلقت بسيارتها وهي لا تكاد تري الطريق أمامها، وأنفاسها تتلاحق بسرعة وكأنها تعدوا علي قدميها .. الدموع تحجرت في مقلتيها .. و ..

وصلت الي المقبرة الجديدة التي أنشأتها.

ودخلت لأول مرة، وما أن استقرت أمام ضريح أمها وشقيقتها حتي هدت بجواره، وأسندت رأسها عليه مستسلمة لمدامعها الغزيرة في بكاء مرير .

كانت تبكي بحرقة شديدة، وهي لا تعرف سبباً لذلك .. أتبكي علي ذكري امواتها أم تبكي علي عمرها الماضي الذي لم تتعايش معه .. أم تبكى علي عمر عمرها الذي كانت تأمل أن تحياه.

تمت



أحمد فريد